

إحراق طارق بن زياد للسفن

أسطورة ... لا تاريخ !!

الدكتور / عبد الحليم عويس



**احراق طارق بن زياد للسفن
أسطورة ... لا تاريخ !!**

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

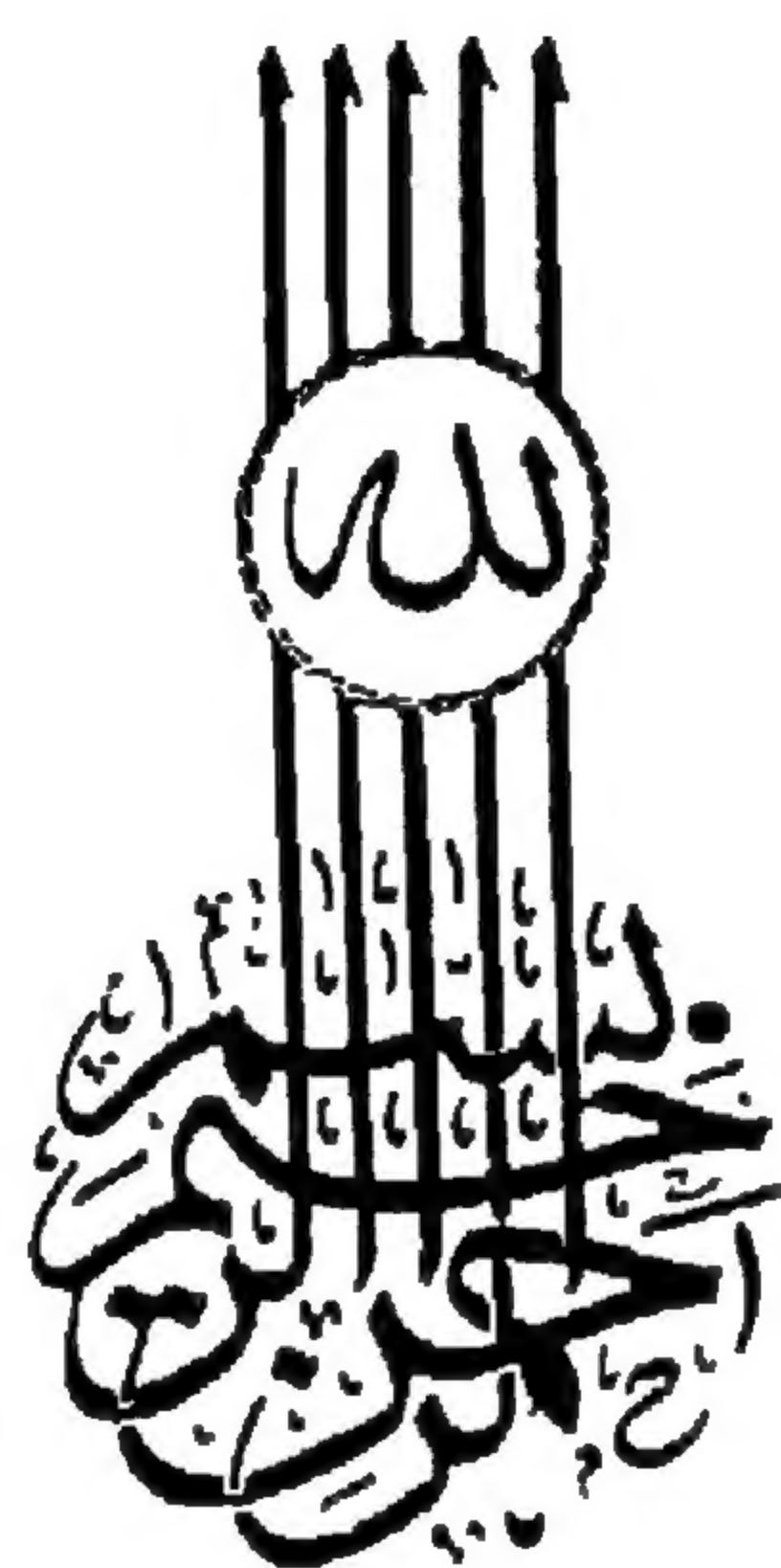
الإدارة : ١٦ ش عدلى ص.ب ١٣٤٧ رمز بريدى ١١٥١١
ت ٣٩٣١٤٣٤ فاكس : ٣٩١٢٢٠٩
الفرع : حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١



إحراق طارق بن زياد للسفن

أسطورة ... لا تاريخ !!

الدكتور / عبد الحليم عويس



قضية إحراق طارق للسفن

فى المصادر التاريخية

لم تحظ قضية من قضايا التاريخ الإسلامى الأندلسى باهتمام المؤرخين واختلافهم ، وجنوح بعضهم - فى ثقة واطمئنان - إلى رأى المثلث ، وجنوح آخريـن - فى ثقة مماثلة - إلى رأى المنفى ، مثلما حظيت قضية إحراق طارق بن زياد للسفن ، التى عبر عليها جنوده إبان فتحه أسبانيا (رجب - رمضان ٩٢ هـ / يونيو - يولية ٧١١ م) .

فبعض المؤرخين الذين يتمون إلى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن ، ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها - على ما سنفصله فيما بعد - وكأنها شىء لا أصل له ، وبعضهم فى المقابل يتناولون قصة (إحراق طارق للسفن) وكأنها حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى الوقوف عندها ولا إلى ذكر أدلة على وقوعها ، وبالتالي فهم يعرضونها بطريقة تقريرية ، ويعتبرونها مفخرة من مفاخر الفتوحات الإسلامية ، وعملا بطوليا شجاعا يدل على روح الفداء والاستشهاد التى عرف بها المسلمون والعرب فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى !

ولقد ذاع الرأى (المثلث) لقصة إحراق السفن ، وشق طريقه فى الفكر التاريخى ، وكأنه حقيقة مسلم بها ، مع أنه لم يظهر إلا بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن من تاريخ الفتح الإسلامى

لأسبانيا ، إذ لم يشر إلى قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين
القدماء ، سواء من المدرسة التاريخية المصرية التى أرخت للأندلس
خلال القرن الثالث الهجرى وهى مدرسة ابن عبد الحكم المؤرخ
المصرى ، صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس »^(١) -
وعبد الملك بن حبيب ، الذى عاش فى مصر ، وإن كان أندلسى
الأصل ، وصاحب كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ
عبد الملك بن حبيب^(٢) - أم من المدرسة التاريخية الأندلسية التى
ظهرت فى القرن الرابع ، وهى مدرسة أبى بكر محمد القرطبى
المعروف بابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) ، وصاحب كتاب « تاريخ
افتتاح الأندلس » - وسوف نورد ما ذكره فى قصة الفتح بشيء من
التفصيل - ومعاصره (المجهول) فى القرن الرابع صاحب كتاب
« أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها »^(٣) - وسوف نورد
ما ذكره كذلك لكونه مرجعا أساسيا فى تلك الفترة - ولم ترد عند آل
الرازى - أحمد بن محمد وعيسى ابنه - وابن الفرضى (ت ٤٠٣ هـ)
صاحب « تاريخ علماء الأندلس » والخشنى صاحب كتاب « قضاة
قرطبة » .

فكل مؤرخى القرن الرابع هؤلاء لم يظهر أثر للقصة فى
كتاباتهم!!

وحتى مع ظهور المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية المتألقة فى

(١) نشره المستشرق تشارلز تورى ، وأخيرا حققه فى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .

(٢) توفى ابن حبيب سنة ٢٣٨ هـ .

(٣) نشره عدد من المستشرقين ، ثم حققه إبراهيم الإييارى .

القرن الخامس الهجرى ، تلك التى قدمت لنا عدداً كبيراً من أعلام المؤرخين الأندلسيين من أمثال شيخ مؤرخى الأندلس أبى مروان بن حيان القرطبى صاحب « المقتبس »^(١) و « المتين »^(٢) ، وابن حزم الأندلسى صاحب « نقط العروس » و « طوق الحمامة » و « جمهرة أنساب العرب » و « كتاب الفصل » وعدد كبير من الرسائل ، وكلها مطبوعة موجودة ، والحميدى صاحب « جذوة المقتبس » ، وصاعد صاحب « طبقات الأمم » ، والطرطوشى صاحب « سراج الملوك » ، والرقيق القيروانى صاحب « تاريخ إفريقية والمغرب » ، وغيرهم .

حتى مع ظهور هذه المدرسة المغربية والأندلسية المتميزة والمستوعبة ، فإنه لم يظهر فى تراثها أثر لقصة إحراق السفن التى نسبت إلى طارق بن زياد فى فتحه للأندلس .

ومن الجدير بالذكر أن مصادر القرن السادس للهجرة - المعاصرة للإدريسى وابن الكردبوس القائلين بقصة الإحراق - لم تورد هذه القصة أيضاً ، فلم تظهر القصة عند ابن بسام الشنترينى صاحب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، ولا عند ابن بشكوال صاحب « الفهرست » .

كما أن القصة لم تظهر عند لاحقهم من مؤرخى القرن السابع ، فليس لها أثر فى موسوعة ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى

(١) حقق قطعا منه الدكتور محمود على مكى والدكتور عبد الرحمن الحجى .

(٢) توجد نصوص كثيرة منه فى الذخيرة ، وقد جمعها الدكتور عبد الله جمال الدين فى أطروحته للدكتوراة بمدريد .

أخبار الأندلس والمغرب » ، و « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »
لعبد الواحد المراكشى ، و « الذيل والتكملة » لمحمد بن عبد الملك
المراكشى ، و « التكملة والحلة السراء » لابن الأبار ، ومحمد بن
على الشباط المصرى التوزى صاحب « صلة السمط وسمه المرط » .

وهى لم تظهر كذلك عند مؤرخى القرن الثامن الهجرى وعلى
رأسهم علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون ، ولسان الدين بن
الخطيب (١) .

فهل يمكن أن يتجاهل جميع هؤلاء المؤرخين المغاربة الأندلسيين
- خلال هذه القرون - قصة هذا شأنها فى تاريخهم ؟؟

(١) لم نذكر - خشية الإطالة - النصوص التى أوردها هؤلاء فى تراثهم عن فتح الأندلس ،
فضلا عن أن هذا لا يقتضيه المنهج العلمى ، علما بأننا رجعنا إلى كل هذه المصادر
نلتهمس فيها ما يدل على قصة الإحراق أو يقترب من الدلالة عليها فلم نجد لذلك أثرا .
انظر على سبيل المثال ما كتبه هؤلاء عن فتح الأندلس فى : جذوة المقتبس :
للحميدى : ص ٣٢ ، ٣٣ نشر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى الطبعة
١٩٨٣/٢ ، وقارىخ إفريقية والمغرب : للرفيق القيروانى تحقيق المنجى الكعبى نشر رفیق
السقطى تونس ١٩٦٨ صفحات ٧٤ وما بعدها ، وانظر صلة السمط : لابن الشباط :
ص ١٣٧ وما بعدها بتحقيق أحمد مختار العبادى مدريد ١٩٧١ ، وفتح المسلمين
للأندلس لمؤلف مجهول بتحقيق حسين مؤنس مجلة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٤ ،
والعبر : لابن خلدون - ٤ / ١١٧ وما بعدها ، الطبعة الرابعة المصورة ، دار الكتب
العلمية ١٩٧٩ . وحتى المصادر المشرقية رجعنا إليها فلم نجد أثرا . وتاريخ الرسل
والملوك للطبرى ٨ / ٨٢ وما بعدها طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر نشر دار الفكر
بيروت ، والكامل : لابن الأثير : ٤ / ٥٦٢ وما بعدها ، طبع دار صادر بيروت
١٩٦٥ ، وأخبار الزمان للمسعودى : ص ٩٦ ، نشر مكتبة الأندلس ، بيروت .

فتح طارق للأندلس فى أقدم المصادر الأندلسية :

ذكرنا أننا سنقف وقفة متأنية عند مصدرين أساسيين فى تاريخ افتتاح الأندلس ، وهما تاريخ ابن القوطية ، وتاريخ أخبار مجموعة ، فهما من أهم المصادر وأوثقها وأحراها بإيراد القصة لو كان لها أصل فى التاريخ .

ولقد تتبعنا الكتاب الأول منهما ، فلم نجد أى أثر لقصة حرق السفن فى كتاب ابن القوطية ، مع أن كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » من أقدم المصادر وأهمها فى تاريخ الفتح الأندلسى . وما ذكره ابن القوطية حول (الفتح الإسلامى للأندلس) يتلخص فى النصوص التالية :

قال ابن القوطية :

فلما دخل طارق بن زياد الأندلس ، أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة ، وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ، يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ، وحشدوا الثغر ، وقدموا ونزلوا شقندة وما يطمثون إلى لذريق بدخول قرطبة ، فخرج إليهم ثم نهض للقاء طارق ، فلما تقابلت الفئتان أجمع « المند » وأخواه على الغدر بلذريق ، وأرسلوا فى ليلتهم تلك إلى طارق يعلمونه أن لذريق إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ويسألونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ، وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس وكانت ثلاثة آلاف ضيعة سميت بذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا انحازوا بمن معهم إلى طارق

فكانوا سبب الفتح (١) . وكان دخول طارق الأندلس فى رمضان سنة اثنتين وتسعين (٢) .

فلما جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة فأمر أصحابه بتقطيع من قتلوه من الأسراء ، وطبخ لحومهم بالقدور وعهد بإطلاق من بقى من الأسراء ، وأخبر المنطلقون بذلك كل من لقوه فملأ الله قلوبهم رعباً (٣) .

ثم تقدم فلقى لذريق (. . .) ثم تقدم إلى استجة وإلى قرطبة ، ثم إلى طليطلة ، ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذى منه دخل جليقية ، فخرج من جليقية حتى انتهى إلى استرقة (٤) .

وهكذا لم يرد أى ذكر - ولا أدنى إشارة - حول قصة إحراق السفن لدى ابن القوطية الذى يعتبر مصدراً من المصادر الأساسية فى فتح الأندلس ، وإن كان هذا النصر يفيدنا شيئاً قريباً من قصة الإحراق فهو يدلنا على أسلوب طارق الحربى ، إذ أنه كان يؤمن بأسلوب التمويه وحرب الأعصاب .

أما صاحب « أخبار مجموعة » - الذى يعتبر أيضاً من أوثق المصادر فى تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، والمنسوب إلى القرن

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ بتحقيق إبراهيم الإييارى، نشر دار الكتب الإسلامية، بيروت والقاهرة.

(٢) المصدر السابق : ص ٣٣.

(٣) السابق : ص ٣٥ وهو إيهام مقصود يمكن أن يكون حرق السفن من نوعه وهو ما سنحلله ونقف عنده فى ختام البحث .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية : ٣٥ .

الرابع الهجرى - فهو من هؤلاء الذين لم يوردوا أى ذكر لحادثة إحراق السفن هذه ، على الرغم من أن « أخبار مجموعة » من أقدم الكتب - بعد جيل ابن عبد الحكم وابن حبيب - فى التأريخ لفتح الأندلس . . . وقصة الفتح عند صاحب أخبار مجموعة ^(١) ترد على النحو التالى :

فبعث رجلا من مواليه - أى موسى بن نصير - يقال له : طريف ، ويكنى بأبى زرعة ، فى أربعمائة ، ومعهم مائة فرس ، فصار فى أربعة مراكب ، حتى نزل بمراكبه جزيرة ، يقال لها : جزيرة الأندلس ، التى هى معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، ويقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لتزوله فيها .

فلما رأى ذلك تسرعوا إلى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان على مقدماته ، يقال له : طارق بن زياد ، فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى ، ليس فيهم عرب إلا قليل ، فدخل فى تلك الأربع السفن ، لا صناعة لهم غيرها ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين .

فاختلف السفن بالرجال والخيول ، وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع ، فنزله ، والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه .

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم) تحقيق إبراهيم الإييارى ، دار الكتاب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ .

وكان موسى مذ وجه طارقا أخذ فى عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر ألفا ، وقد أصابوا سببا كثيرا ورقيقا ، ومعهم « يليان » فى جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار ، فأقبل إليهم لذريق ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فالتقى لذريق وطارق ، وهو بالجزيرة ، بموضع يقال له البحيرة ، فاقتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم « شبشرت وأبة » ابنا غيطشة ، ثم قابل القلب شيئا من قتال ، ثم انهزم لذريق ، وأذرع فيهم المسلمون بالقتل ، وغاب لذريق فلم يدر أين وقع (١) .

وهكذا ينتهى نص أخبار مجموعة دون أن نستفيد شيئا يتصل بقصة الإحراق ، إلا أننا نستفيد من انهزام الميمنة والميسرة بقيادة ابنى غيطشة بعداً آخر يؤكد أسلوب طارق الحربى فى استعمال العقل والحيلة وحرب الأعصاب ما وجد إلى ذلك سبيلا .

إن هذين المصدرين - تاريخ ابن القوطية وأخبار مجموعة - هما أقدم المصادر الأندلسية التى بين أيدينا ، وهما يتميزان على المصادر السابقة والتى نعرف منها : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لابن عبد الحكم ، و« مبدأ خلق الدنيا » لابن حبيب - بأنهما مصدران ينتميان إلى المدرسة الأندلسية ، بل هما الاستهلال للكتابة التاريخية الأندلسية ، بينما كان ابن عبد الحكم وابن حبيب ينتميان إلى المدرسة

(١) ص ١٦ - ١٨ .

المصرية التي سبقت في كتابة تاريخ الأندلس .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذين المصدرين موضع ثقة من المؤرخين على الرغم مما عرف عن ابن القوطية من نزعة شعوبية تميل إلى الأندلسيين بينما يصف الدكتور العبادي ابن الكردبوس - محقق الجزء الأندلسي من الاكتفاء لابن الكردبوس - بأنه (لم يذكر للأسف المصادر التي استقى منها معلوماته والتي اعتمد عليها في كتابه) (١).

ويصفه - أيضا - بأنه مولع بالغرائب والعجائب التي لا تحمل التصديق (٢) ، وليس متكلفا أن نقول : إن نزعة الغرائب والعجائب هذه كانت - بالطبع - موجودة بدرجة ما في معاصر ابن الكردبوس وشريكه في إيران رواية إحراق السفن (الإدريسي) - على الأقل - اعتماداً على وجود هذا الجانب في الأدب الجغرافي وأدب الرحلات بصفة عامة !!

ظهور رواية إحراق السفن :

ليس من المعقول - كما يقول الدكتور محمود مكي (٣) - أن يخفى هذا الخبر الهام على كل المؤرخين السابقين ، فلا يعرفه إلا الإدريسي أبو عبد الله محمد ، الذي توفي سنة ٥٦٠ هـ ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » سنة ٥٤٨ هـ ، ومعاصره أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس الذي لم تعرف سنة وفاته ، على خلاف في أيهما سبق

(١) تاريخ الأندلس : لابن كردبوس : ص ١١ ، طبع معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة
١٩٧١ ، مقدمة العبادي .

(٢) المصدر السابق (مقدمة العبادي) : ص ٢٥ . (٣) مرجع سابق .

الآخر وأخذ عنه (١) ، وهو خلاف لا طائل وراءه فهما متعاصران ، وإن كنا نميل إلى سبق الإدريسي ، لأنه أكثر تفصيلاً ، وعنه أخذ الحميري محمد بن عبد الله صاحب « الروض المعطار » ، وهو الثالث الذى تبعهما فى ترديد هذه الرواية ، كما أن من المرجح أن يكون ابن الكردبوس قد توفى فى نهاية القرن السادس الهجرى ، ويكون ثمة احتمال بسبق الإدريسي عنه فى الزمان حتى وإن تعاصرا (٢) .

يقول الإدريسي : (لما جاز طارق بمن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس فى نفسه أن العرب لا تشق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التى جاز عليها فتبرأ بذلك عما اتهم به) (٣) وعن الإدريسي - كما سنرى - أخذ الحميري . . . فأورد فى « الروض المعطار » قوله :

(وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه فأراد أن ينفى عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التى جاز فيها فتبرأ بذلك مما اتهم به) (٤) .

(١) يذهب الدكتور محمود مكى إلى سبق الإدريسي ، ويذهب الدكتور أحمد العبادى إلى سبق ابن الكردبوس . راجع المقالة السابقة لمكى ، وفى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى : ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) مقدمة تحقيق أحمد العبادى لنص ابن الكردبوس ، مدريد ١٩٧١ ، ص ٧ .

(٣) نزهة المشتاق : ١٧٧/٢ ليدن ، بتحقيق دوزى .

(٤) الروض المعطار : ص ٧٥ (جزء مستل منه) .

والتشابه بين النصين واضح لا يحتاج إلى تعليق ، أما ابن الكردبوس فقد جاءت عبارته مقتضبة في كتابه « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » وذلك عندما عقب على المعركة التي خاضها المسلمون بقيادة طارق في فتح الأندلس : (معركة شذونه أو وادي لكة أو وادي البيرباط) بقوله :

(ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) (١) .

وتعتبر هذه النصوص الثلاثة التي وردت عند الشريف الإدريسي والحميري - الناقل عن الإدريسي - وابن الكردبوس ، هي الأصل الذي اعتمدت عليه كل المصادر التاريخية والأدبية التي أشارت إلى قصة الإحراق .

ولا أثر للقصة - كما ثبت رصدنا هذا الذي حاولنا أن يصل إلى درجة الحصر - في بقية المصادر الأندلسية الأصلية ، سواء تلك التي سبقت هذه المصادر أو التي عاصرتها في القرن السادس أو التي لحقتها حتى نهاية القرن الثامن الهجري - كما ذكرنا سابقا .

(١) تاريخ الأندلس : لابن الكردبوس : ص ٤٦ ، ٤٧ ، ووصفه لابن الشباط نسان جديان ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي .

إحراق السفن .. والأسطورة:

ربط بعض المفكرين بين قصة إحراق طارق بن زياد للسفن وبين عدد من الأساطير القريية من القصة والتي شاعت هي الأخرى فى التاريخ ونالت حظا كبيرا من الاهتمام ومن إضفاء العناصر الخيالية والأسطورية عليها .

وقد عقد الدكتور محمود على مكى (١) مقارنة ضافية بين عدد من الأساطير تدور كلها حول إحراق القادة منهم لسفنهم ووضعهم جيوشهم أمام مأزق (النصر أو الموت) وذلك خلال بحث يحمل العنوان نفسه « أسطورة إحراق السفن فى التاريخ » (٢) .

وهكذا - ابتداء - جعل الدكتور مكى من قصة إحراق طارق للسفن واحدة من الأساطير التى شاعت فى التاريخ ، وعالجها فى سياق عدد من الأساطير الشرقية والغربية - التى عرفت حول هذا الأمر .

ولقد ساق الدكتور مكى من الأساطير الشرقية أسطورة إحراق القائد وهرز الفارسى لمراكبه حين ساعد سيف بن ذى يزن فى تحرير اليمن والانتصار على الأحباش . وما سبق ذلك من إلقاء وهرز خطبة عصماء فى جنوده على النحو الذى سيذكره بعض المؤرخين فيما بعد فى فتح الأندلس . . .

(١) أحد المهتمين القلائل بالأدب الأندلسى والتاريخ الأندلسى ، ومحقق لقطع من المقتبس لابن حيان ، ووكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقا ، وصاحب مؤلفات عدة .
(٢) انظر الكتاب التذكارى لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦/١٩٧٧ .

ويرى الدكتور مكى أن أسطورة حرق وهرز لمراكبه ، وأسطورة الخطبة المرتبطة بالإحراق ، يعتبران نواة لهذه الأسطورة التى تعرض علينا مثلاً من أمثلة الفداء والتضحية سيصبح منذ ذلك الوقت خبراً محبباً لدى رواة قصص الحملات البحرية حيث يكون عدد الفاتحين أقل بكثير من عدد الجنود الذين يقومون بالدفاع عن الأرض المفتوحة^(١) .

وانتقالاً من أرض اليمن ، إلى أرض الأندلس ، وعبوراً بالحقائق التاريخية المسلم بها فى فتح الأندلس حتى انتهى أمر معركة الفتح - معركة شذونة - بهزيمة ساحقة للقوط ونصر عظيم للمسلمين فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ ، مع وجود فارق شاسع بين الجيشين المتحاربين - جيش القوط الذى تقدره بعض الروايات بمائة ألف وجيش المسلمين الذى يزيد قليلاً عن اثنى عشر ألف جندي - ومع وجود فارق فى العدة والعتاد لصالح القوط ، ومع أن القوط كانوا دولة منظمة تدور الحرب على أرضها ووراءها رصيد بشرى ومادى هائل ، بينما كان المسلمون خليطاً من العرب ومن البربر حديثي العهد بالإسلام وليس وراءهم - كما قال طارق - إلا البحر . . . ١١

انتقالاً إلى هذا الفتح العظيم الذى لا يرقى إليه شك يعلق الدكتور مكى بقوله :

(وكان من الطبيعى أن يلهب هذا النصر الهائل الذى أحرزه

(١) الدراسة السابقة الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٧٦ م .

طارق أخيلة المسلمين بعد ذلك ، فإذا بهم يضيفون إلى رواية الفتح تفاصيل من صنع الخيال حول أسبابه وأحداثه وشخصياته ، وظلت هذه التفاصيل تتضخم جيلا بعد جيل حتى أصبح فتح الأندلس محاطا بحلقات ودوائر من الأساطير جعلت تميز خيوط الحقيقة التاريخية فيه من بين النسيج القصصى أمرا من الصعوبة بمكان (١) .

ثم يضيف رابطا بين أسطورة وهرز في اليمن وأسطورة إحراق طارق للسفن بقوله : (ولعلنا قد لاحظنا التشابه الواضح بين خبر إنزال طارق بن زياد جنوده بساحل الأندلس وبين ما تذكره الأخبار العربية القديمة عن وقائع فتح وهرز الفارسي وسيف بن ذى يزن لبلاد اليمن ، وهذا هو ما جعل كثيرا من أخبار الفتح اليمنى يتسرب إلى قصة فتح الأندلس) (٢) .

على أن أهم إضافة دخلت إلى رواية الفتح من قصة وهرز كانت حول أحداثه . فقد رأينا كيف عمد القائد الفارسي إلى إحراق مراكبه حتى يقطع على جنوده كل سبيل للتفكير في العودة أو في النكوص على أعقابهم ، فرأى بعض القصاص في عصور متأخرة أن يضيفوا قصة إحراق المراكب إلى أحداث الفتح الأندلسي ، ولعل ما دفعهم إلى ذلك كان ما جاء في نص خطبة طارق الأصلية : « ... أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصديق والصبر » فقد رأوا أن خير ما يجسم هذا المعنى هو أن يجعلوا طارقا يحرق مراكبه (٣) .

ويدعم الدكتور مكى رأيه في أسطورية قصة حرق السفن في فتح

(٣) محمود على مكى ، مرجع سابق .

(١ ، ٢) المكان السابق .

الأندلس حين يذكر أن اليمينية الذين عزيت إليهم الأسطورة الأولى كانوا من العناصر الأساسية في فتح الأندلس . . . فكان هذا الأسلوب في الترويج الأسطوري هو أسلوب يبنى معروف ، يقول الدكتور محمد مكى :

(يجدر بنا أن نشير بهذه المناسبة إلى أن كثيرا من رجالات الفتح الأندلسي كانوا من أصول يمنية . وقد رأينا أن طريف بن مالك الذى قاد أول سرية استطلاعية حلت بشواطئ الأندلس كان من النخع أو من معافر على رأى بعض المؤرخين . ومن معافر أيضا كان على وجه التحقيق عبد الملك بن أبى عامر - الجد الأعلى للحاجب المنصور بن أبى عامر - وكان من رجال طارق بن زياد وهو فاتح قرطاجنة من أعمال الجزيرة الخضراء ، هذا إلى عدد كبير من القبائل اليمينية التى استقرت منذ الفتح فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة ، ولا يبعد أن يكون لهؤلاء أو لذرياتهم نصيب فى إرفاد قصة فتح الأندلس بتفاصيل من تلك الأقاويص القديمة حول ملحمة سيف بن ذى يزن وتحريره اليمن من الأحباش) (١) .

وفى سنة (١٥١٩ م) - أى بعد سقوط الأندلس (١٤٩٢ م) بنحو ثلاثة عقود فقط قدم التاريخ الأسباني أسطورة حرق المراكب فى قصة فتح أسبانيا للمكسيك وهى القصة التى كان بطلها القائد أرنان كورتس (Aman Cortes) وأيضا فقد خطب كورتس بعد إحراقه للسفن خطبة تشبه إلى حد كبير خطبة طارق (٢) .

(١) المكان السابق .

(٢) انظر تاريخ المغرب والأندلس : د/ أحمد مختار العبادى ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالأسكندرية ، ص ٦٦ ، وانظر د/ محمود مكى ، المرجع السابق .

ونحن لا يهمنا الوقوف كثيرا عند الأسطورة الأخيرة ، فليست داخلية في موضوعنا ، وإنما يهمنا بيان هذا النهج الذى اعتمده بعض المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الدكتور أحمد مختار العبادى ، والدكتور محمود على مكى ، فى معالجة قصة إحراق طارق للسفن .

ولقد كان الدكتور مكى صريحا واضحا فنفى - بكل وضوح - قضية إحراق طارق للسفن واعتبرها أسطورة . وقد عالجها الدكتور أحمد مختار العبادى بالمنهج نفسه إلا أنه انتهى إلى القول - مع ذلك - إلى أنه لا يستطيع نفي القصة أو إثباتها معتمدا فى ترده فى الحكم على (وقوع أحداث مماثلة) - حسب تعبيره .

ومن هذه الأحداث ما روى من أن فاتح صقلية أسد بن الفرات أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان بسبب المجاعة التى حاقت بهم . . . فأراد حرق المراكب . . . لكنه ضرب ابن قادم زعيم المترددى فماتت دعوة التردد وعادت العزيمة إلى الأنفس (١) .

ونحن لا ندرى ما هى الأحداث المماثلة التى وقعت واتكأ عليها الدكتور العبادى فى هذه القصة حتى يبرر ترده فى الحكم ؟

إن مجرد إرادة أو إيهام أسد بن الفرات لجنوده بأنه يريد - أو أنه قادر - على إحراق السفن ليس حدثا يأخذ شكل الواقعة التاريخية ويتكى عليه ، فهذه الإرادة أو الإيهام أو التهديد للجنود أمر لا ضير

(١) رياض النفوس ١/ ١٨٨ ، نقلا عن العبادى ، المرجع السابق .

فيه ، بل قد يكون مطلوبا ، وهو جائز بكل المقاييس العسكرية والشرعية ، أما تنفيذ ذلك ، والتضحية الانتحارية بجيش بأكمله ، وبأسطول قد يصعب تعويضه ، فهو الأمر الخطير الذى يجب أن نتوقف عنده . وهو ما لم يقدم لنا الدكتور العبادى دليلا عليه ، مع أنه أيد عدم وجود هذه القصة فى المصادر التاريخية التى ظهرت فى القرون الأربعة التالية

بيد أننا نتفق مع الدكتور العبادى فى أن قصة حرق المراكب - أو أسطورتها - كانت شائعة ومعروفة فى أسبانيا ، لدرجة أن بعض الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها فى بعض أعمالهم الحربية ، ومازال الأسبان يستعملون مثلا شعبيا معناه « أحرقت كل سفنى » ^(١) « أو بذلت كل طاقتى » (He Quemado Todasnaves)

ـ ونحن لا نستبعد أن يكون التراث الشعبى الأسباني الذى راعته بطولة المسلمين الفائقة فى واقعة الفتح صاحب الفضل فى نسج هذه القصة ، تقريبا من شأن النصر ، إذ هو لم يتم إلا بعمل انتحارى ، وليس بإيمان فى ظل ظروف عادية . ولقد ظهر نوع مستقل من الأغانى الشعبية الأسبانية المجسدة لقصة الصراع بين المسلمين والنصارى ، وهى أغان كان يطلق عليها أغانى الحدود Romances Fra nterizos ^(٢) ولعل هذا النوع من الأدب هو المسئول عن اختراع هذه القصة . ثم تلقفها بعض المسلمين ، فبدت وكأنها إسلامية المنشأ .

(٢) د/ مكى ، المرجع السابق .

(١) د/ العبادى ، المكان السابق .

ولعل فى ظهور هذه القصة بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) -
وليس قبلها - وفى فترة تأجج الصراع فيما يعرف بعصر الاسترداد ،
وبداية تخاذل الجبهة الإسلامية الأندلسية وتفككها . لعل فى ظهور
هذه القصة فى هذا الزمان - وليس قبله - دليلا على أن موطن هذه
الأسطورة كان أسبانيا النصرانية ، ثم تسربت إلى الأندلس الإسلامية
التي كانت فى حاجة إلى بطولات تقوم على الأساطير ؛ لأنها
عجزت عن حل مشكلات حاضرها على ضوء حقائق تاريخها الذى
صعب عليها ترسم خطاه .

لقد كان حديث فتح الأندلس - فى عصور اضمحلال أمر
المسلمين ، وسقوط المدن الإسلامية - بما فى هذا الفتح من مشاهد
بطولة رائعة - كان حديث الفتح هذا من أكثر ما يجرى على ألسنة
المسلمين فى هذه البلاد ، وما يثير فى نفوسهم من مشاعر الفخر
والاعتزاز ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا : إن هذا الحديث كان يزداد ترده
وإضافة المزيد إلى تفاصيله كلما تزايد ضعف المسلمين فى الأندلس
واشتد ضغط القوى النصرانية عليهم ، فقد كانوا يحاولون أن
يستمدوا من أحاديث الفتح وسير أبطاله ما يشد العزائم الخائرة ،
ويحيى الهمم المتهالكة .

أما نصارى الأندلس فإنهم لم يكونوا يقلون عن المسلمين إقبالا
على هذه الأحاديث ورغبة فيها ، فقد كانوا يريدون أن يتخذوا من
ذلك الماضى عظة وعبرة ، هذا فضلا عن الإعجاب الخالص
بالبطولة ، حتى وإن كان البطل خصما لا هفر من مجالدته وقتاله .

وقد رأينا مثلاً لذلك فى مجموعة من الأغانى الشعبية الأسبانية تنتمى إلى ما كانوا يسمونه (أغانى الحدود) وهى تتناول الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مناطق الحدود ، وفيها مع ذلك كثير من مشاعر الإعجاب بفروسية الخصم المسلم وبسالته . وقد حمل ذلك نصارى أسبانيا على تتبع أخبار فتح الأندلس وملاحم الصراع بين الإسلام والمسيحية فيما تلا الفتح من العصور ، بل كان لهم نصيب فى إضافة كثير من الأحاديث القصصية والأسطورية إلى تلك الأخبار^(١) .

وهكذا - سواء من جانب الجبهة الإسلامية أم الأسبانية - نرى الصلة وثيقة بين إحراق طارق بن زياد للسفن ، وبين الأسطورة ، وقد رأى الطرفان مصلحة فى استغلال الأسطورة ، هذا للتغنى بالماضى حين عز عليه الحاضر القوى ، وذاك للانتقاص من قيمة نصر طارق فى فتح الأندلس .

(١) محمود على مكى ، المرجع السابق .

خطبة طارق ...

ما مدى دلالتها على حرق السفن ؟

يعتمد القائلون بحرق طارق بن زياد للسفن التي عبر عليها على بعض العبارات التي وردت في الخطبة المنسوبة إليه ، والتي توهم بوقوع هذا الإحراق - من وجهة نظرهم - أو توهم بعدم وجود أسطول سواء كان قد أحرق أم أبعد ، كما تفيد النصوص من وجهة نظرنا - !! بيد أننا لا نجد ما يوجب أن يكون عدم وجود الأسطول على الشواطئ الأسبابية مفيداً - بالضرورة - لوقوع الإحراق ، فقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد عن الشاطئ ، لإيهام الجند بأن (البحر من ورائهم) وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن أو العتاد .

على أن عبارة (البحر من ورائكم) الداعية لا توجب بالضرورة إحراق السفن أو ابتعادها . . فوجود السفن في البحر لا يعنى أن البحر قد تحول برأ ، وأن مخاطر الانسحاب مأمونة بالكامل ، بل ثمة خسائر كثيرة يمكن أن تقع عند الهزيمة مع وجود السفن أيضا . . وبالتالي فقد يصح ورود العبارة مع وجود السفن ولا تعارض بين الأمرين ، إذ البحر من وراء الجنود والعدو من أمامهم على كل حال .

بيد أن المشكلة الحقيقية هي في مدى الثبوت التاريخي لخطبة طارق نفسها ، فالنقد التاريخي الحديث المتكئ على المصادر ، وعلى النقد المنطقي يشكك في نسبة الخطبة إلى طارق ، أو على الأقل في

نسبة هذه النصوص البلاغية التي شاعت في كتب الأدب وبعض كتب التاريخ للخطبة .

ومع هذه الشكوك - فإن الاستدلال بالخطبة على ثبوت الإحراق يبدو استدلالاً بضعيف على ضعيف .

إن مصدر المشكلة في خطبة طارق - كما ذكرنا - هو هذه البلاغة التي تميزت بها الخطبة مع أن طارقاً عرف بأنه بربري الأصل . . . فمن أين له هذه البلاغة ؟

ولقد اختلفت النصوص التي وردت بها الخطبة وتباينت ، وكان هذا من عوامل الشك فيها .

وقبل أن نتكلم في مدى الصدق التاريخي لهذه الخطبة ، نوردها وفق أكثر نصوصها شيوعاً وبلاغة في كتب التاريخ والبلاغة ، وبالتالي نقف وقفة متأنية أمام قضية صدقها التاريخي .

وهذا نص خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس ، كما وردت في « نفح الطيب » لأحمد المقرئ التلمساني (١) :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام

(١) ٢٢٥/ ١ طبع بيروت .

على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ربحكم وتعوضت
القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان
هذه العاقبة من أمركم . بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقى به إليكم
مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم
بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم دونى
على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، أبدأ بنفسى . واعلموا أنكم
إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألد طويلا ، فلا
ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد
بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم
الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك
هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم
بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء
كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من
دونه ودون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون
لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم
إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم
(لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلك بعدة
فقد كفيت أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن
هلك قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم
عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله .

فإذا تركنا هذه الصيغة التى أوردتها المقرئ صاحب نفح الطيب ،
والتي تعتبر أكثر الصيغ الواردة للخطبة إطنابا وبياناً وبلاغاً ، فإننا لا

نكاد نجد صيغة تتشابه معها فى أى مصدر من المصادر ، اللهم إلا فى الذين نقلوا عن نفح الطيب ، ولا قيمة لرواياتهم لأنهم محدثون نقلة. بل إن ابن الكردبوس الذى يعتبر من القلائل الذين أشاروا للخطبة قد أوردتها بصورة جد مقتضبة . . . ونحن ننقل نصه كاملا ليعرف حجم اقتضابه . . . يقول :

(ورحل طارق نحو قرطبة بعد أن أحرق المراكب (!!) وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) ثم يقول :

(ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تدانيا ، تخير لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل فى عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيأتهم ، فمضى حتى دخل فى محلة المسلمين ، فأحس به طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ . فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها . فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس فنودى فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم . فلما فرغوا ، انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على (الموت والفتح) فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا) (١) .

(١) تاريخ الأندلس ، مسألة من الاكتفاء لابن الكردبوس ص ٤١ - ٤٧ بتحقيق العبادى .

.. وهذا كل ما أورده ابن الكردبوس عن خطبة طارق
العصماء!!

بيد أنها وردت فى أقدم المصادر الأندلسية التى كتبت عن الفتح
الإسلامى لأسبانيا على النحو التالى :

(أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ،
فليس لكم والله إلا الصدق والصبر . ألا وإنى قادم إلى طاغيتهم
بنفسى لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه) (١) .

ولسنا فى حاجة بعد هذين النصين أن نتبع بقية الروايات التى
وردت بها (خطبة طارق) ... وحسبنا أن نذكر أن هذه الخطبة
لا تكاد ترد - إن وردت - فى مصدرين على نحو متشابه فى
الألفاظ والتعبيرات ، وإن اقتربت من المضمون .. وهو أمر يؤكد
لنا أن (أسلوب) الخطبة قد لعبت فيه أهواء البلاغة والبيان ، وتلقاه
كل ناقل بما يجب من الفصاحة ، فأضفى عليه من نفسه وأسقط عليه
من فصاحته .

ولهذا نجد نصها فى تاريخ عبد الملك بن حبيب (٢) مختلفا عن
نصها فى « الإمامة والسياسة » المعزو لابن قتيبة الدينورى (٣) . وهما
يختلفان عن النص الوارد عند ابن خلكان (٤) وعن النص الوارد عند

(١) تاريخ ابن حبيب (نص خاص بافتتاح الأندلس) ، حققه الدكتور محمود مكى صحيفة
مدريد ١٩٥٧ .

(٢) المكان السابق . (٣) ١١٧ / ٢ .

(٤) وفيات الأعيان : ٤ / ٤٠٤ بتحقيق محبى الدين عبد الحميد .

المقرى التلمساني صاحب « نفع الطيب » (١) .

ولا تكاد توجد نصوص للخطبة في غير هذه المصادر التاريخية، باستثناء كتب الأدب والبلاغة التي لا يعول كثيرا عليها في ثبوت النصوص التاريخية ؛ لأنها تركز في الأعم الأغلب على مضمون النص أكثر من صحته التاريخية .

وقد أورد ابن عذارى المراكشي في كتابه الموسوعي « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » عدداً من الآراء حول موقعة وادي لكة أو شذونة - وهي المعركة الكبرى التي انتهت بفتح الأندلس على يد طارق سنة ٩٢ هـ - ومقدماتها ، فنقل عن (عريب) ، وعن صالح بن أبي صالح ، وعن ابن القطان ، وعن الرازي ، وعن الواقدي ، وعن عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر دينار ، وعن غيرهم (٢) ، لكنه - مع ذلك - لم يورد أدنى إشارة إلى هذه الخطبة ، ولا إلى إحراق طارق للمراكب !! كما أن ابن الأثير في «الكامل» ذكر أنه يكتب ما يكتب عن فتح الأندلس (من تصانيف أهلها إذ هم أعلم ببلادهم) (٣) ، ومع ذلك فلم يذكر شيئاً عن خطبة طارق .

بل إن الدكتور محمود على مكى - وهو الثبت المحقق في التاريخ الأندلسي وأدبه - يرى أن هذه الخطبة دخلتها عناصر أسطورية مثلما دخلت غيرها ، بل لعلها - في رأيه - مستحدثة على غرار الخطبة الأسطورية المختلقة التي نسبت إلى وهرز فاتح اليمن صحبة

(٢) ٢ / ٤ ، ٨ طبع بيروت .

(١) مكان سابق .

(٣) الكامل : ٥٥٦/٤ طبع بيروت ، دار صادر .

سيف بن ذى يزن . . . وهو يقول بهذا الصدد :

(وربما كان أول مظهر لهذا التسرب - تسرب أسطورة وهرز إلى الفتح الأندلسى - ما نراه فى خطبة طارق بن زياد ، وقد كان نصها القديم الموجز الذى ورد عند عبد الملك بن حبيب مماثلا فى خطوطه العامة لنص خطبة وهرز كما ساقها لنا هشام الكلبي . غير أن مثل هذا النص المحكم البديع لم يكن ليرضى أنخيلة الناس فى العصور المتأخرة فإذا بهم يضيفون إليه فتستطيل الخطبة حتى تبلغ أضعاف نصها الأول ، وكأن ذلك لم يكفهم فإذا بهم يزوقونها بألوان من السجع ورخارف الألفاظ إلى حد يجعل الباحث يحكم من النظرة الأولى بأن الخطبة تعرضت لزيادات متعاقبة لا شك فى أنها مصنوعة)^(١) .

والسؤال الوارد هنا - فى ظل هذا العرض :

ما مدى الصديق التاريخى فى هذه الخطبة من جانب ، وفى نسبتها إلى طارق بن زياد من جانب آخر ؟

أما الصديق التاريخى فى (جوهر) خطبة طارق بن زياد فنحن نميل إليه ، فهو أمر درج عليه الفاتحون العرب والمسلمون ، ذلك لأن المسلمين كانوا يعتمدون فى انتصارهم على الروح المنوية ، والإيمان القوى بالله وبما أعده للشهداء ، فكانت حروبهم تهدف إلى غايتين لا

(١) محمود على مكى : الكتاب التذكارى لجامعة الكويت ١٩٧٦ مقال حول أسطورة حرق السفن .

ثالث لهما : النصر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة .

ولو أننا تعمقنا في بعض روايات خطبة طارق لوجدنا فيها عبارة (القتل أو الفتح) أو (انتصروا أو موتوا) ، وهما - فيما أعتقد - الترجمة لعبارة (النصر أو الشهادة) التي أعتقد أن طارق بن زياد قد خطب بها ، ويشيء حولها ، في أصحابه .

أما من ناحية (نص الخطبة) بهذه الديباجة المشرقة والسجع غير المتكلف ، والبيان الرائع - الذي ورد في النص الذي تداوله الكتب الأدبية والمدرسية - فهذا ما أستبعد أن له أساساً تاريخياً ، سواء من ناحية انقطاع السند أو المتن .

فمن ناحية انقطاع السند : نعرف أن الخطبة لم ترد إلا بعد عدة قرون تصل إلى العشرة ، إذا ما نظرنا إلى رواية نفح الطيب الذائعة الصيت . . أما ما قبلها من الروايات فليس فيها شيء من هذه الديباجة المشرقة - على النحو الذي بسطناه سلفاً .

ومن ناحية المتن : فإنه من المستبعد عقلياً أن يكون طارق بن زياد قادراً على صياغة تلك الخطبة ، ولا سيما وأن مثل هذه الخطبة تقال ارتجالاً في الغالب ولا تقال بعد إعداد وتدبير . ومبعث عدم قدرة طارق على إعداد تلك الخطبة أنه كان (بربري الأصل) - على أرجح الآراء وأقواها وأكثرها - فهو بربري من (نفزة) كان مولى لموسى بن نصير من سبي البربر . وقال آخرون : إنه فارسي ، والنتيجة واحدة . فهو أعجمي على أية حال ، وإن كنا نرجح - كما ذكرنا - بربرته . . . وقد أورد صالح بن أبي صالح في نسبه - كما نقله عنه

ابن عذارى : - أنه (طارق بن زياد بن عبد الله بن رفه بن ورفجوم بن نيزغاش بن ولهاص بن يطوفت بن نغزاو) (١) .

وليست المشكلة فقط في (بربرية) طارق التي يتعذر معها - مع حداثة العهد بالعربية - إبداع مثل هذه الخطبة . بل المشكلة - أيضا - في الجيش المتلقى للخطبة ، إذ أن هذا الجيش - كذلك - كان معظمه من البربر . فكيف توجه خطبة بهذه الرصانة العربية لجيش بربرى ؟ وما فائدتها في هذا الوقت العصيب الذي يراد فيه لكل كلمة أن تؤتي ثمارها ؟ ومن هنا فنحن نرجح أنه ربما ألقى خطبته باللسان البربرى ، ثم ترجمها إلى العربية بعض من كانوا في الجيش حتى تصل معانيها إلى عنصرى الجيش معا ، وهما البربر والعرب .

ونحن نرى أن إطار الخطبة كان هو الإطار المحدود الذى ألمحنا إليه - وهو النصر أو الشهادة - ثم جاء المدونون والكتاب العرب فتوسعوا فيها - جريا على عادتهم - بالبيان والسجع والتحلية والإطناب .

ومعروف أنه في عصور مختلفة - من حضارتنا - لم تكن المترجمات تلتزم بالديباجة الجافة للأصل المترجم عنه ، بل تعتمد إلى (تعريب) المنقول لفظا وأسلوبا . . . بل تحاول إفراغه في روح عربية لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

فلهذا ألبيت خطبة طارق الثوب العربى ، وتوسع فيها ألفاظا

(١) البيان المغرب ٥ / ٢ بتحقيق بروفنسال ، ونشر بيروت .

ومعاني حتى وصلتنا بهذه الصورة التي نقلها إلينا المقرئ التلمساني في كتابه « نفع الطيب وغصن الأندلس الرطيب » .

وهذا ما نراه فصل الخطاب في هذه الخطبة التي دخلت الأدب - كخطبة عصماء - من أوسع الأبواب . لكن مسارها بدأت تضيق عندما حاولت الدخول في مجال التاريخ .

وفي ضوء هذا التحليل - سواء حول ثبوت نص الخطبة أو حول دلالتها على حرق السفن - يبدو أن الاعتماد على الخطبة في إثبات قصة إحراق السفن ليس استدلالاً في موضعه ، فليست الخطبة قطعية الثبوت . وإذا ثبتت - في صورتها الوجيزة التي وردت عند ابن حبيب - والتي يمكن نسبتها إلى طارق - فليست - مع ذلك - قطعية الدلالة ، بل إنها بعيدة كل البعد عن الدلالة المباشرة لإحراق السفن ، وتحتل في دلالتها أكثر من وجه ، ولهذا تكاد تفقد قيمتها بالنسبة لقضية إحراق السفن .

قضية إحراق طارق للسفن

فى نظر المؤرخين المحدثين

وردت قصة إحراق السفن كمسلمة تاريخية لدى كثير من الكتب المدرسية والشعبية فى العصر الحديث ، وتكاد القصة ترد دون وقوف عندها أو تحليل لها لدى عدد كبير من هؤلاء . ولم نشأ أن نقف عند هذه البحوث التى كتبت بأقلام غير متخصصين ، لأنه أمر يخرج عن نطاق البحث العلمى الرصين ، وحسبنا أن نقف عند المراجع التاريخية العلمية ، لأنها - على الأقل - أكثر من غيرها ، وقد وقفت من القضية موقف التمحيص والتحليل .

ولم نجد فيما بين أيدينا من المراجع التاريخية الحديثة من ذهب إلى تأييد قصة إحراق السفن إلا عدداً محدوداً من المراجع (١) ، ومن الغريب أن الدكتور أحمد مختار العبادى ، بعد أن يورد صلة القصة بالطابع الأسطورى عند الشعب الأسبانى ، ينتهى القول بالتردد فى الحكم (٢) .

النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما النافون للقصة فهم الجماهرة الغالبة من المتخصصين فى

(١) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامى : د/ أحمد شلبى ح - ٤ طبع القاهرة ، و مع المسلمين فى الأندلس : على حبيبة ، و تاريخ الإسلام السياسى : حسن إبراهيم : ١ / ٣٢٠ ط ٩ مصر ، والإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على ص ٢٥٣ ط مصر .
(٢) فى تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦٦ ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية .

الدراسات التاريخية والأندلسية ، وكل ما يلاحظ في هذا المقام هو أن معظم هؤلاء لم يقف عند القصة الوقفة الكافية التي تتناسب وشيوع القصة في الذهنية المعاصرة .

بل إن كثيرا منهم قد تجاهلها بالمرّة ، ولم يورد لها ذكرا على الإطلاق ، مع أننا لا نعتقد أن هذا التجاهل قد يكون من باب السهو ، فليست القصة حدثا ثانويا أو أمرا عابرا بهذه الدرجة (١) .

ومن المعروف أن الأمير شبيب أرسلان كان يقف موقف المحلل للكثير من القضايا ، ومع ذلك فهو لم يعرض لقصة الإحراق ، وإنما اكتفى بذكر بعض المسلمات التاريخية كقوله : (إن موسى جرد تجريدة لاثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر ، فعقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله واحتز رأس لذريق وبعث به إلى الخليفة في دمشق (١١) ، وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليلة ، وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقي الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره . وطارق بن زياد هو الذي سمى باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق) (٢) .

(١) من هؤلاء على سبيل المثال : الدكتور إبراهيم بيضون في كتابه : الدولة العربية في أسبانيا ط بيروت ص ٧٢ ، ٧٣ ، ومنهم محمد حسن قججه في كتابه : محطات أندلسية ط دار السعودية ١٩٨٥ ص ١٦ ، ١٧ ، ومنهم جورجى زيدان في رواية فتح الأندلس ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، وانظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم ٣٥٨/٢ ، ٢٥٩ نشر الاسكندرية والدكتور أحمد شكرى : قرطبة في العصر الإسلامى ص ١٠ ، ١١ ط ١٩٨٣ ولطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٣ / ط ٢ مصر .

(٢) تاريخ غزوات العرب : ص ٢٩ ، ٣٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

وهذا كل ما أورده شكيب أرسلان فى المقام الذى كنا نطمع فيه أن يورد شيئاً عن قصة إحراق السفن .

أما المؤرخ العسكرى الأستاذ محمود شيت خطاب - وهو الذى عرف عنه وقوفه عند مثل هذه الوقائع بتحليلها من الوجهة العسكرية « والاستراتيجية » على الأقل - فإنه لم يقف عندها كذلك إطلاقاً ، وكل ما ذكره حول فتوحات طارق أن طارقاً فتح مدينة قرطاجنة الجزيرة ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بها وأقام قاعدة حربية فى موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصد المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، والتقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين هجرية / ١٩ يوليو سنة ٧١١ م على وادى برباط أو وادى لكة قرب مدينة شذونة ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الحاسمة التى فتحت أبواب الأندلس للمسلمين (١) .

وهكذا عبر القصة - بتجاهل تام - كاتبان كبيران كنا نتوقع منهما أن يقفا عندها وأن يحللاها التحليل المناسب لتخصص كل منهما ، أولهما من الناحية الإسلامية والتاريخية ، وثانيهما من الناحية

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٢٤٥ ، ٢٤٦ ط دار الفكر ١٩٧٨ م .

العسكرية ، ولكنهما آثرا أن يتجاهلها بالمرّة !!

الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما أستاذنا المؤرخ محمد عبد الله عنان فقد عالج قضية إحراق السفن فى القسم الأول - العصر الأول - من موسوعته حول دولة الإسلام فى الأندلس ، فقد مال إلى نفي القصة ، وإن كان قد تردد فذكر أنها (عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس) (١) ونحن لا نرى فيها - لو صحت - أية بطولة ، بل نراها عملاً انتحارياً لا يقدم عليه المسلمون ، ومع ذلك فالأستاذ عنان يميل إلى نفيها - كما ذكرنا - بل هو يراها (واقعة يغلب عليها لون الأسطورة وإن كانت مع ذلك تعرض فى ثوب التاريخ الحق) (٢).

ويقدم الأستاذ عنان لنفيها عدداً من الأدلة منها : أننا (نعرف أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق ، وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟) .

(١) ص ٤٩ مكتبة الخانجي - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ .

ويجب الأستاذ عنان على تساؤله :

(إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الإدريسي فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجح ، وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال : إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ، فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » . وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى أسبانيا ، ولكننا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل هذا الخطاب فقد نجد تفسيراً لقوله فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات (١) .

وهكذا يميل الأستاذ عنان - وهو أحد الباحثين المعاصرين الكبار فى التاريخ الأندلسى - إلى استبعاد (أسطورة) إحراق السفن

(١) المرجع السابق : ص ٤٨ ، ٤٩ .

- حسب تعبيره - وهو يقدم لنا - وهذا هو الجديد فى رأيه - تفسيراً
لخطبة طارق التى توهم منها بعضهم - واستدل بها - على أن طارقاً
أحرق السفن ؛ لأن عبارة (البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم) قد
تعنى ملكية يوليان للسفن ، وعدم قدرة المسلمين - بالتالى - على
جعلها طوع أوامرهم . . وهو مجرد افتراض من أستاذنا الكبير ،
ونحن لا نميل إليه ، لأننا لا نؤيد القول بأن المسلمين لم يكن لديهم
أسطولهم الخاص بعد موقعة ذات الصواري (٣٥ هـ) البحرية بنحو
ستين سنة !! ، كما أن الاستراتيجية العسكرية السليمة تقضى
باستبعاد هذا الفرض ، فضلاً عن النصوص التاريخية المؤيدة لوجود
سفن لدى المسلمين أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد .

على أن أستاذنا الدكتور حسين مؤنس لم يقف وهو يؤرخ لفتح
الأندلس عند قصة إحراق طارق للسفن ، ليس عن إهمال أو نسيان
لها ، ولكن لأنه - كما بدا لنا - لا يراها جديرة بالوقوف عندها ، فهو
لم يشأ أن يعرض لها فى متن كتابه « فجر الأندلس » ، وإنما اكتفى
بإيراد إشارة وجيزة فى الهامش يذكر فيها أن المؤرخين المحدثين يميلون
(إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التى عبر عليها فأحرقها لكى
يقطع كل أمل لجنوده فى العودة إلى إفريقية ، وليدفعهم إلى
الاستبسال فى القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا
الإدريسى وهو من رجال القرن الثانى عشر الميلادى - كتب جغرافيته
سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م - ولهذا نشك فى صحة هذا الخبر ، ثم إن طارقاً
لم يستطع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان (١) .

(١) فجر الأندلس : ص ٦٩ ، الدار السعودية للنشر الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

وقد أورد الدكتور مؤنس هذا الهامش وهو يتحدث عن تحصين طارق للموضع المعروف بجبل طارق تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتوى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً (١) . فكأن الدكتور مؤنس يثبت فى المتن - من خلال إبرازه لتحصين طارق للموقع - ما يؤكد وجود احتمال للانسحاب لدى طارق ، وهو بهذا ومن خلال التوضيح فى الهامش ينفى تلك القصة الشائعة القائلة بحرق طارق للسفن ، فكأن دحضها عنده لا يستحق أن يوضع فى المتن ولا أن يلقى اهتماماً أكثر من هذا القدر الهامشى .

أما الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتابه « التاريخ الأندلسى » ، فقد أنكر قصة حرق السفن هذه من منطلق عقلى وإسلامى خالص . وقد أدار حواراً حول بعض الحجج التى يوردها القائلون بحرق طارق للسفن ، ثم رد على ما طرحه هؤلاء من حجج .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجى : (هل حقاً أن طارقاً أحرق السفن التى عبر بها المضيق ، كى يقطع على الجيش الإسلامى كل أمل فى العودة فيستमित فى الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها المسلمون أو يليان ؟ كأن طارقاً وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة ، وأنهم من ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعانى .

فإذا كانت السفن ليليان فليس من حق طارق التصرف بها . وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً ، مادام

(١) المكان السابق .

يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأى غرض ، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة ، واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعانى الإسلامية والهدف الذى جاء الجيش من أجله لأقوى فى الاندفاع من أى سبب آخر ، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا . والمصادر الأندلسية - لا سيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التى لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة (١) .

ومن المؤرخين المعاصرين المتخصصين فى الدراسات الأندلسية الذين وقفوا عند القصة وأدلو فيها برأى - الدكتور محمد عبد الحميد عيسى فى كتابه عن « الفتح الإسلامى للأندلس » فقد جاء فى كتابه آنف الذكر (٢) :

(حاولت ، مع اقتناعى الكامل بعدم حدوث هذه الواقعة تاريخيا واقتناعى الكامل بأن طارق بن زياد ما كان ليقدم على مثل هذا العمل ، أن أجد تعليلا لظهور هذه القضية فى بعض المدونات التاريخية ، والقراءة المتأنية لذلك الخبر عند ابن الكردبوس ، وعند المقرئ يمكنها أن تلقى الضوء على تلك المسألة التى اختلف حولها المؤرخون ، يتحدث ابن الكردبوس عن جاسوس دسه لذريق ملك

(١) (التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧) : د/ عبد الحميد على الحجى : ص ٦٢ ، طبع دار القلم بدمشق والكويت الطبعة الأولى ١٣٩٦) .

(٢) ص ١١٧ هامش - طبع القاهرة - أولى - ١٩٨٥ م .

أسبانيا داخل الجيش الإسلامى ليتعرف له على دخليتهم ، ويشعر المسلمون بالجاسوس ، فلا يقبضون عليه ، إنما يستفيدون من وجوده ، ويأمر طارق جنوده ، بأن يقطعوا جثث الموتى من أسراهم ، ويضعوها فى القدر ويغلوها على النار ، ثم يقومون خلسة برمى لحم الموتى ، ويحلون محله البقر والغنم ثم يدعون الناس للطعام ، فيتصور الجاسوس أن المسلمين يأكلون لحوم البشر ، ومن هنا : هل عمل المسلمون نفس الشيء وأوهموا الجاسوس حرقهم لمراكبهم؟^(١).

مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم وهذا ما حدث بالفعل ، عاد الرجل إلى لذريق ليقول له : (أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح ، فداخل لذريق من ذلك وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)^(٢) .

ولعل رواية المقرئ أكثر وضوحاً وتؤيد هذا الاتجاه الذى أتصوره ، فهو بعد أن يقص رواية هذا الرجل الذى دسه لذريق فى صفوف المسلمين ، يذكر بأنه عاد إلى لذريق ليقول له : فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين

(١) إننا نميل إلى إمكانية وقوع هذا... وهو مما يجوز حرياً من وجهة النظر الإسلامية ، وانظر بقية النص وتحليلاً له عند حديثنا عن رأينا فى القضية فى نهاية البحث .

(٢) انظر ابن الكردبوس ص ٤٨ ، ٤٩ .

أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرعب
وتضاعف جزعة (١) .

وقد تعرض لقصة إحراق السفن من المعاصرين - أيضا - الدكتور
محمد محمد زينون خلال دراسة له عن « الفتح الإسلامى
للأندلس » (٢) ، فرأى أن طارقا لم يحرق السفن (لأنه يعلم أن الجنود
الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التى يملكها الجيش الإسلامى
حتى يضطر إلى قطع أملهم فى التقهقر إذا أرغمتهم الظروف إلى
ذلك) (٣) .

ويضيف الباحث أن طارقاً يعلم أنه قد اضطر قبل خوض المعركة
إلى طلب المدد من موسى بن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط ،
فأمدّه بخمسة آلاف جندي عبرت بهم السفن إلى الأندلس ، ولا شك
أنه لو طلب مدداً ثانياً أو ثالثاً لأمدّه موسى . فعلى فرض صحة ما
يروى من إحراق السفن ، فكيف كان المدد الذى يرسله إليه موسى
يستطيع أن يصل إليه ؟ .

وأخيراً يتساءل الباحث : كيف عبر موسى بجيشه الذى بلغ
ثمانية عشر ألفاً بعد ذلك بعام واحد ؟ (٤)

والباحث محق فى تساؤله ، فإن فرصة عام واحد لا تكفى لبناء

(١) نفح الطيب : ٢٥٨/١ .

(٢) دراسة منشورة بمجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض العدد الخامس ١٤٠١ هـ .

(٣) المكان السابق . (٤) المكان السابق .

أسطول جديد . . . ثم إن بناء الأسطول عمل ليس سهلاً ، بل يقتضى الجهد والمال والرجال . . . ونحن نضيف عدداً من التساؤلات من جانبنا :

ما الفائدة من هدم أسطول لنبنى آخر ؟

وهل كان الأمر يقتضى المغامرة بهذا العدد من المسلمين ؟

ولقد دخل المسلمون قبل فتح الأندلس معارك كبرى ذات تأثير (استراتيجى) أعظم من فتح الأندلس ، فلماذا لم يبيحوا لأنفسهم مثل هذا العمل الانتحارى ؟

ولنفترض أن المسلمين قد هزموا لأول جولة فى فتح الأندلس ، ألم تكن هناك فرص أخرى للكر . . . كما هزموا غير مرة فى فتحهم للمغرب الذى استمر فتحهم له أكثر من ستين سنة ؟

إن كل هذه التساؤلات تثير علامات استفهام كبيرة حول قصة إحراق السفن .

وينفى القصة ويورد أسباب نفى لها الدكتور عبد العظيم رمضان - أحد المؤرخين المعاصرين - فيقول :

(وفى الواقع فإن طارق بن زياد لم يكن ليجرؤ على حرق مراكبه لسبيين) :

الأول :

أنها كانت مراكب مختلطة ، أى مراكب يملكها جوليان حاكم

سبته ، ومراكب إسلامية من الأسطول الإسلامي الذي بناه موسى ابن نصير .

الثاني :

أن حملة طارق لم تكن سوى البداية في فتح الأندلس ، وكانت القوة العسكرية التي عبرت تحت قيادته إلى الشاطئ الأسباني غير كافية لإتمام هذا الفتح . وكان طارق يعرف أنه إن عاجلا أو آجلا ، سوف يطلب الإمدادات والنجدات من موسى بن نصير . وبالتالي فقد كان في حاجة إلى المزيد من السفن لهذا الغرض وليس إحراق السفن ا . ومن ثم فإن قصة حرق المراكب تبدو خيالية تماما ، ولا يوجد ما يبررها عقلا (١) .

وهكذا - ومن خلال هذا العرض الذي حاولنا فيه الوصول إلى شبه استقصاء لآراء المؤرخين المعاصرين في قضية إحراق السفن - نجد أن هذه القصة لم تتمتع بالتأييد من المؤرخين المحدثين ، بل تعرضت للنقد من شتى الجوانب ، ولم تستطع أن تقف على أرض ثابتة .

(١) الحقيقة التاريخية في فتح الأندلس ، مجلة أكتوبر عدد ٤٠٧ / ١٢ / ٨ / ١٩٨٤ .

إحراق السفن فى الإطار الشرعى

كان لا بد من الوقوف مع قصة إحراق السفن وقفة تعتمد على أوثق مناهج النقد ، ليس لمجرد إثبات وقوعها من عدمه ، بل لأن لهذه القصة بعداً آخر غير بعدها التاريخى ، وهو البعد التشريعى والإسلامى ، فالحديث يدور عن فترة تنتمى إلى عصر التابعين ، وحتى فتح الأندلس ، وجيوش طارق بن زياد ، وموسى بن نصير كان فيها تابعيون كذلك . ولقد كان بعض الصحابة المشهورين أحياء إلى أيام الوليد بن عبد الملك (١) ، ولربما وجد عدد كبير من الصحابة من غير المشهورين ، ومع ذلك فاتفق التابعين أو إقرارهم على عمل ما ، دون أن يلقى الرفض أو المقاومة ، إنما يمثل موافقة منهم ، وهم أهل للاحتجاج بأعمالهم فى عالم التشريع ، فما يعقل أن يتواطأ التابعون على منكر لا يقره الإسلام .

وعلى هذا الأساس فإن لنا أن نتساءل : كيف سكّت التابعون على إحراق طارق للسفن ؟ وهل يعنى هذا مشروعية هذا العمل من الناحية الإسلامية ؟ وفى عصر كعصر التابعين ولما ينته القرن الأول الهجرى : هل تسمح هذه البيئة الإسلامية بإحراق السفن دون معارضة ، ودون احتجاج من الساسة أو الفقهاء أو المفكرين أو الشعراء ؟ لقد اختلف الصحابة من قبل وتقاتلوا من أجل مقتل عثمان

(١) نحن نذكر منهم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ .

والخلاف على أسبقية القصاص أو استتباب الحكم ، وكل منهم كان يؤمن بأنه يقاتل عن مبدأ شرعى ؟ ولمجتهدهم المخطئ أجر وللمصيب أجران . فهل يتواطأ التابعون على إحراق أسطول إسلامى فى وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى الأساطيل لمواجهة الرومان!!؟

ومن زاوية أخرى - شرعية أيضا - هل يجوز فى الإسلام مبدأ المغامرات الانتحارية ؟ لقد انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد فى موقعة (مؤتة) بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، حين أدرك خالد ومعظم الجيش أن المعركة انتحارية إزاء هذا الفارق فى العدد بين جيش المسلمين وجيش الروم . وقد كان هناك مسلمون فدائيون يطلبون الاستمرار فى القتال ، ومع ذلك أثر الجيش الانسحاب بقيادة خالد بن الوليد ، وسماهم الرسول عليه الصلاة والسلام (الكرار) ردا على من سخرؤا منهم فى المدينة وسموهم (الفرار) . أليس هذا السلوك النبوى تشريعا إسلاميا يحرم المغامرات الانتحارية ، ويجيز الانسحاب فى حالة وجود مفاجآت تجعل المعركة إبادة للمسلمين ؟ وبالنسبة لقصة إحراق طارق للسفن هل كان ثمة موجب لهذا الإحراق مع أنه لم يكن يعلم شيئا عن نتيجة المعركة ؟! فإذا كان طارق قد توقع الهزيمة للجيش الإسلامى ومن أجل هذا أحرق السفن فإنه يدخل فى باب المغامرات الانتحارية التى يحرمها الإسلام . وهو بهذا - ومن معه من التابعين - لم يستوعبوا التوجيه النبوى فى (مؤتة) وهو مالا يمكن القبول به .

وإذا كان قد توقع النصر فما جدوى إحراق السفن ؟

وهذه الخسارة المالية التي لا جدوى كبيرة وراءها في عصر يصعب فيه صناعة السفن ، والتي يمكن أن توجد طرق بديلة عنها ، هل هي جائزة شرعا ؟

إن كل هذه الجوانب ، سواء تلك التي تتصل بالتضحية بالبشر (اثني عشر ألف جندي وسبعمئة تقريبا) (١) ، أم بالسفن - تجعل من إقدام طارق على هذا الإحراق عملا مخلا بالشرعية ، وهو مالا يمكن للتابعين - بشكل يشبه التواطؤ - أن يسكتوا عليه ، أو على الأقل أن لا يظهر أى خلاف فقهي حوله . . . لكن هذا السكوت يعنى أنه لم تكن هناك قضية من هذا القبيل ، ولم يثر بالتالى أى خلاف ، لأنه لا يمكن إثارة أى خلاف حول قضية لم تحدث فعلا ، وهو ما تميل إليه ، بالنسبة لتابعى صالح مثل طارق بن زياد ، وبالنسبة لمن معه من التابعين رضى الله عنهم .

إن روح التاريخ الإسلامى التى تستضىء بالشرعية - ولا سيما فى هذه العصور - لا تميل إلى هذا اللون من السلوك ، فالنظرة الإسلامية للحروب تميل إلى الحفز المعنوى والأخلاقى الروحى - لا إلى هذا القهر الانتحارى - كما تميل إلى الرغبة فى النصر لرفع كلمة الإسلام أو الشهادة لنيل الجنة ورضا الله .

وقد هزم المسلمون فى غزوات وسرايا كثيرة حتى أيام الرسول ﷺ

(١) أخبار مجموعة : لمجهول : ص ١٧ ، ونفع الطيب ١/ ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

من أبرزها غزوة أحد ، كما زلزلوا زلزالاً شديداً في غزوة الخندق .
ومع ذلك فلم يرد أى تفكير حول هذا السلوك الانتحارى ، وقد
كان المسلمون يعتبرون الهزيمة تمحيصاً وإبتلاء أرادته الله ليختبرهم
وليتخذ منهم شهداء ، وقد دخلوا معارك مصيرية كثيرة أمام الروم
والفرس ولم يفكروا فى مثل هذا الأسلوب ، فهل ينتهى بهم المطاف
إلى هذا العمل الانتحارى فى معركة فرعية وغير مصيرية مثل فتح
الأندلس !!؟

إن هذا ما نستبعده ، بل نراه غير ممكن الوقوع ، لمخالفته - على
الأقل - للأصول الشرعية ولروح النظرة الإسلامية للحروب .

رأينا فى القضية

إن رأى الباحث فى الدراسات التاريخية ، ولا سيما فى القضايا التى لم يعاصرها إنما يتكئ بالدرجة الأولى على المصادر المعاصرة أو القريبة من الواقعة - وهذا ما يعرف فى علم الحديث (بنقد السند) - ثم إنه يتكئ بالدرجة الثانية على النقد الداخلى للواقعة من ناحية منطقيتها ومعقوليتها وملاءمتها لروح عصرها وللقوانين والتقاليد التى كانت مسيطرة إبان وقوعها ، وهذا - إذا ما استعرنا مصطلحات علم الحديث مرة أخرى - هو ما يعرف (بنقد المتن) .

ونحن فى الدراسات التاريخية نأخذ بجانبى النقد معا ، ونرى أن نقد المتن لا يقل فى أهميته عن نقد السند ، وأنهما فى مستوى واحد من الأهمية .

أولا : نقد السند :

وواضح من العرض السابق لقضية إحراق السفن أنها لا تصمد فى باب نقد السند ، فسندها منقطع انقطاعا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أى منهج لنقد السند ، وقد بلغ الانقطاع حداً لا يقبله المنهج التاريخى مهما كان تجاوزه وتسامحه بالنسبة لمنهج المحدثين . فهناك - أولا - فترة انقطاع عامة فى مصادر الدراسات التاريخية الأندلسية والمغربية ، فإذا كان فتح الأندلس قد بدأ سنة ٩٢ هـ وانتهى سنة ٩٥ هـ وعاد طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى المشرق خلال

الشهور الأخيرة من سنة ٩٥ هـ - على ما نرجح - فإن المصادر التاريخية الأندلسية المدونة لم تظهر إلا فى القرن الثالث الهجرى على يد ابن عبد الحكم المصرى وابن حبيب (ت ٤٣٨ هـ) وهو انقطاع فى الزمان يدعمه انقطاع فى المكان . إذ أن هذين المؤرخين لم يكن انتماءهما للأندلس ، على الرغم من أن ابن حبيب أندلسى الأصل ، لكنهما مثلاً المدرسة المصرية الرائدة فى تدوين التاريخ الأندلسى .

ومع هذا ، فإن قصة إحراق طارق للسفن لم تظهر فى هذين المصدرين ولا فى مصادر القرون التالية ، حتى منتصف القرن السادس الهجرى . أى أن هناك انقطاعين ، انقطاعاً يكفى لدحض القصة - منذ البداية - إذا أخذنا بمنهج المحدثين ، وهو الانقطاع الأول الذى وقع فيما بين فتح الأندلس (٩٣ هـ) وظهور مدرسة ابن عبد الحكم وابن حبيب فى القرن الثالث الهجرى ، وهو انقطاع عام فى الدراسات التاريخية الأندلسية . أما إذا تجاوزنا منهج المحدثين العظيم الذى لم تستطع الدراسات التاريخية - حتى اليوم - الوصول إليه ، وإن كان من الضرورى الاقتراب منه قدر الاستطاعة ، نقول :

إذا تجاوزنا - مضطرين - هذا المنهج الحديثى ، ونظرنا إلى الواقعة من زوايا الانقطاع الثانى ، وهو الانقطاع الذى وقع بين ظهور المدرسة الأندلسية التاريخية سواء على يد المدرسة المصرية (ابن عبد الحكم وابن حبيب) أم على يد بواكير المدرسة الأندلسية الأصلية فى القرن الرابع الهجرى (ابن القوطية وابن عريب والخشنى وابن الفرضى وغيرهم) فسوف نجد أن لدينا انقطاعاً يصل إلى أكثر من أربعة قرون ونصف القرن (٩٢ - فتح طارق - إلى ٥٤٨ هـ مع ظهور كتاب

الإدريسى ثم كتاب ابن الكردبوس) . فهل يمكن أن تقبل واقعة انقطع سندها ، وانقطعت كل مصادرها هذا العدد من القرون ١٩ ؟

وجدير بالذكر أنه من سوء حظ الدراسات الأندلسية أن كثيرا من المصادر المتعلقة بفترة الفتح - بخاصة - وبتاريخ المسلمين في الأندلس - بعامة - مفقودة نتيجة الإتلاف المتعمد الذي قام به رجال الكنسية المتعصبون في فترات متعددة من التاريخ بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٠هـ (١٤٩٢ م) . ففي سنة ٩٥٠ هـ (١٤٩٩ م) - على سبيل المثال لا الحصر - أتلقت أعداد كبيرة من المخطوطات بصورة متعمدة ، وذلك تنفيذا للقرار المتعسف الذي اتخذه الكاردينال جيمينيث - (Ximenez) والذي تسبب في حرق ثمانين ألفاً من الكتب العربية في الساحات العامة لغرناطة (١) . أما بقية المخطوطات التي نجت من هذا التلغ المتعمد ، فقد ظلت في حوزة رهبان غير مثقفين ، أو على رفوف بعض المكتبات حتى جمعت من قبل الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨ م وحفظت في دير الأسكوريال (٢) ، ومع هذا فقد احترقت ثلاثة أرباع هذه المجموعة سنة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧١ م)

(1) Pascual De Gayanzos The History Of The Mohammedan Dynasties in Spain ,New York 1964, Vol . IPP. VIII - IX

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص ١٧ ، ٣٧ في كتابه : (الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس طبع ١٩٨٢ العراق .
(٢) قارن :

S.M. Lmamuddin, (Sources Of Muslim History Of Spain) : Journal Of The Pakistan Historical Society, I, 1953,P.358

لاندلاع حريق فى الأسكوريال (١) .

وهذه مجرد أمثلة لضياح تراثنا الأندلسى ، تعكس مدى الانقطاع الذى يفصلنا عن كثير من حقائق هذا التاريخ .

ويزيد فى صعوبة الأمر أن أيا من المؤرخين الثلاثة الأول الذين روى هذه القصة وهم الإدريسى وابن الكردبوس والحميرى - الذى نقل عن الإدريسى - لم يذكر لنا واحد منهم أية مصادر سابقة نقل عنها ، حتى يقرب لنا مساحة الانقطاع ، أو يدلنا على بعض الضوء فى هذه الظلمات .

كما أن الحميرى - كما أثبتنا - مجرد ناقل حرفى عن الإدريسى ، فلا يعتد به .

وهكذا ننتهى إلى أننا لا نملك - من ناحية السند - إلا أن نشك - على الأقل - فى ثبوت إحراق طارق للسفن .

فإذا أضفنا إلى هذا تطبيق بعض معايير المحدثين فى النظر إلى الرجال الناقلين ، إذ أن ابن الكردبوس كان مجرحاً - كما ذكرنا - (٢) وأنه لم يكن ثقة فى كثير مما يكتبه ، ولربما كان يعتمد على الأقوال الشائعة التى تشبه الحكايات والأساطير فى عهده .

(1) Pascual De Gayanzos, Op.Cik.Vol.Ip.IX

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص ١٧ ، ٣٧ .

(٢) نقلا عن محقق القطعة الأندلسية من كتاب (الدكتور أحمد مختار العبادى) مرجع سابق .

أما الإدريسي فإن طبيعته الجغرافية التي من شأنها أن تقبل ما يحكى فى الرحلات من بعض المبالغات تجعلنا لا نفرق كثيرا بينه وبين ابن الكردبوس ، وعلى خطأ الإدريسي سار الحميرى دون تمحيص !!

إذا أضفنا هذا - أى نقد الرجال الناقلين - فإننا نميل إلى رفض هذه القصة من ناحية انقطاع السند وتجريح الناقلين . وهذا هو الأساس المكين الأول فى رفض هذه القصة !!

ثانيا : النقد التاريخي لمضمون قصة إحراق السفن :

إن التتبع الدقيق لخطوات موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس يجعلنا نتشكك في دعوى إحراق طارق للسفن ، اللهم إلا إذا افترضنا افتراضا خياليا محضا بأن طارق بن زياد كان يثق في أن نتيجة المعركة ستكون لصالح المسلمين ، وهو ما لا يمكن التيقن منه (عقلا) في مواجهة جيش القوط الكبير الذي تحدده أقل الروايات بثلاثة أضعاف المسلمين في العدد ، وأكثر من ذلك كثيرا في الإمكانيات والعدد . وتصل به بعض الروايات إلى تسعة أضعاف الجيش الإسلامي (١) .

لقد ظهر حرص موسى بن نصير وطارق بن زياد على أرواح المسلمين في فتح الأندلس منذ بداية التفكير في الفتح ، ولقد كانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك واضحة في هذا الصدد ، فقد أمر واليه موسى بن نصير بأن يترث في الفتح ، وأن يختبر الأندلس بالسرايا ولا يغامر بأرواح المسلمين (٢) .

ولقد استجاب موسى لتعليمات الخليفة ، فأرسل سريتين استطلاعتين إحداهما بقيادة جولييان حاكم سبته ، وثانيتها بقيادة طريف بن مالك (٣) ولما اطمأن موسى إلى إمكانية الفتح كلف طارقا

(١) أخبار مجموعة : لمؤلف مجهول : ص ١٧ وابن الكردبوس . مصدر سابق : ص ٤٧ والعبر : لابن خلدون : ١١٧/٤ ..

(٢) أخبار مجموعة : ص ١٦ وابن الكردبوس : مرجع سابق ٤٥ .

(٣) أخبار مجموعة ، بتحقيق الإيباري ص ١٦ ، ١٧ وابن الكردبوس : مرجع سابق ٤٥ ، ٤٦ . وانظر مجهول : وصف الأندلس وتاريخها بتحقيق حسين مؤنس (مجلد ١٨ / ١٩٧٤ مدريد مجلة معهد الدراسات الإسلامية ص ١٢٧) .

بالاستعداد لقيادة الحملة ، ثقة منه في شخصية طارق ، وفي حسن بلائه وخبرته ومكانته في البربر المسلمين (١) .

وعندما عبر طارق العدو الأندلسية ، ودخل الجزيرة الخضراء ، وقبل أن يتقدم إلى الموقعة الفاصلة - موقعة شذونة - التي سيلتقى فيها بلذريق إمبراطور القوط بنا في جبل الفتح حصنا منيعا ليتحصن به هو ومن معه ، ثم بنا حصن أم حكيم في الجزيرة المسماة باسمها حتى اليوم ، ولم يكتف بهذا بل إنه بنا سوراً يسمى سور العرب يضمن به طريق العودة عند الضرورة (٢) . . وفي الوقت نفسه فقد أرسل طارق كتيبة قوية بقيادة عبد الملك بن عامر المعافري لافتتاح حصن قرطاجنة الذي يقع في سفح جبل طارق (٣) شمال غرب جبل طارق ، وبعد افتتاح هذا الحصن وقعت كل المناطق المحيطة بمنطقة المضيق بيد المسلمين ، وتولى عبد الملك المعافري مسئولية السيطرة على الجزيرة الخضراء يساعده في ذلك جوليان ، وبهذا حميت مؤخرة جيش طارق

(١) وصف الأندلس ١٢٨ لمؤلف مجهول : تحقيق مؤنس (كان طارق مسئولاً عن عدد كبير من المسلمين البرابرة مثل مصمودة وجراة وجراءة وكتامة ورنانة وهوارة ، وقد كان مغيب الرومي يصف طارقاً للخليفة سليمان بن عبد الملك بأنه لو أمر المسلمين بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه وهذه كلها دلالات على مكانة طارق (انظر ابن الشباط ١٠٣ - ضمن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس تحقيق العبادي مصدر سابق ، وانظر فتح الطيب : للمقرئ ١٣/٣ بتحقيق مان عباس بيروت ١٩٦٨) .

(٢) البيان المغرب : لابن عذارى المراكشي : تحقيق بروفنسال ٩/٢ طبع دار الثقافة بيروت ، وانظر تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادي في ٦٨ .

(٣) انظر ابن عذارى المصدر السابق ٩/٢ ونفح الطيب : ٢٣٣/١ و الفتح الإسلامي للأندلس : محمد عبد الحميد عيسى ص ١١١ طبع القاهرة ١٩٨٥ .

وأصبحت خطوط اتصالاته مع شمال إفريقيا آمنة (١) ، وأقام المسلمون حزام أمان يربطهم بالشاطئ الإفريقي ، ويضمن لهم عدم المهاجمة ، ويؤمن لهم طريق الإمدادات والارتداد إذا ما قدر الله لهم مكروها (٢) .

وهذه الإجراءات كلها تقتضى اقتضاء مباشراً أن يكون طارق قد وضع فى خطته حساباً للهزيمة والانسحاب ، ووضع الضمانات الكفيلة بحماية جيشه المنسحب ، وهو ما يتناقض مع القول بإحراقه للسفن ، لأن قصة إحراق السفن تقوم على أساس معادلة محددة (النصر أو الموت) ولا مكان فيها للانسحاب .

وعندما اقترب طارق من معركته مع القوط وعلم بعدد الجيش القوطى الكبير أرسل إلى موسى يطلب منه المدد ، أو كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » : (يستفذه ويخبره بأن ملك الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به) (٣) . وسلوك طارق على هذا النحو يؤكد الاتجاه العاقل والحكيم والحريص على أرواح المسلمين ، فهو لا يلجأ إلى مغامرات غير مأمونة ولا يميل إلى أسلوب المجازفة بأرواح المسلمين . وحتى عندما يهزم طارق جيش القوط ، ويتقدم فيفتح كورة شذونة ، ثم يتقدم فيلاحق المنهزمين ، ويفتح قلعة استجة ، ومورور فى محافظة أشبيلية ، ويتمكن من احتلال طليطلة عاصمة

(١) الفتح الإسلامى والاستقرار العربى الإسلامى : عبد الوهاب ذنون طه : ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١١ .

(٣) انظر : مؤلف مجهول : أخبار مجموعة : ص ١٧ وتاريخ المغرب والأندلس : ص ٦٩ .

القوط وبعض القلاع والوديان حولها (١) ، هنا يتوقف طارق عند هذا الحد ، ويستقر فى طليطلة ويرسل إلى موسى بن نصير يدعوه لمساعدته ، ويرسم له خطة القدوم ليكمل فتح المناطق التى لم يتمكن طارق ولا مساعده من فتحها .

وفعلا يتقدم موسى سنة (٩٣هـ) بجيش قوامه ثمانية عشر ألف جندي أكثرهم من العرب ، فيفتح أشبيلية وقرمونة وماردة وغيرها من مدن الغرب الأسباني حتى يلتقى بطارق على نهر التاجة . فمثل هذه الحيلة من طارق ، وهو يحتل عاصمة البلاد تدل على أنه قائد حكيم يقدر لخطواته وقعها ولطاقته حجمها ، ولا يميل إلى المغامرات الانتحارية أو غير المحسوبة .

وهكذا - من خلال هذا العرض لوقائع جهود طارق فى فتح الأندلس - لا نجد ما يدلنا على وجود طبيعة اندفاعية عند طارق ، بل نجد كل الوقائع تؤكد اعتماده على التخطيط وتجنب المخاطرة بالأرواح والمغامرات غير المحسوبة .

وأما ما تذكره بعض المصادر من أنه قد اندفع إلى طليطلة بعد أن أرسل فرقا من جيشه إلى مالقة ومرسية وقرطبة (٢) ، وهو ما يفهم منه أنه اندفع نحو طليطلة بعدد قليل ، وأن ذلك كان مغامرة منه ، فالصحيح أن طارقا لم يرسل إلا حملة مغيث الرومى إلى قرطبة ،

(١) انظر الكامل : لابن الأثير : ٥٦٤/٤ ، ونفح الطيب ٢٦١/١ و الفتح والاستقرار العربى الإسلامى : ص ١٧٠ .

(٢) انظر أخبار مجموعة : ص ١٩ ، ٢٠ والكامل : ٥٦٣/٤ ، والبيان المغرب : ٩/٢ ونفح الطيب : ٢٦٠/١ .

بل هناك من يرى أنه هو الذى فتح قرطبة أيضا (١) ، وبديهي أنه هو الذى فتح بجيشه الموحد بقية المدن التى كانت فى طريقه إلى طليطلة .

وأما مالقة ومرسية فتأبث أن موسى بن نصير هو الذى فتحهما فى حملته التى أكمل بها فتوحات طارق (٢) ، كما أنه من الضرورى القول بأن تقدم طارق نحو طليطلة كان عملا عسكريا ضروريا حتى يمنع القوط من التقاط أنفاسهم وتوحيد صفوفهم (٣) ، وهو الأمر الذى قدره له موسى بن نصير بعد أن التقى به فى طليطلة ، وقد سارا معا بعد ذلك لفتح بقية مدن الأندلس بعد أن كان موسى قد اقتنع بوجهة نظر طارق فى التخطيط للفتح ، وبضرورة استقرار المسلمين الدائم فى الأراضى المفتوحة ، وهذا الأمر واضح جدا من التفاهم المتبادل ، والتعاون المشترك الذى سار بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة (٤) فى الوسط والشمال الأسباني .

لكن هناك أمرا آخر أمكن رصده فى أسلوب طارق فى فتح الأندلس ، وهو أمر يفتح لنا الباب للتعرف على شتى جوانب المنهج الحربى لهذا القائد ، كما يدلنا - عند التحليل العميق - على رافد من الروافد الاحتمالية التى انطلقت منها قصة إحراق طارق للسفن .

لقد تحدث عدد من مؤرخى الفتح الإسلامى لأسبانيا - من أمثال ابن الكردبوس والمقرئ - عن بعض الأساليب التى كان يتبعها طارق

(١) مجموعة تاريخ الأندلس : لابن الشباط : ص ١٤١ ، تحقيق العبادى ، مدريد ، والبيان المغرب ١١/٢ .

(٢) البيان المغرب : ١١/٢ . (٣) د/ عبد الواحد طه : مرجع سابق : ص ١٧١ .

(٤) عبد الواحد ذنون : مرجع سابق : ص ١٧١ .

فى تحطيم الروح المعنوية عند خصومه القوط ، وقد ذكروا منها أنه عمد إلى بعض الأسرى ، فأمر بذبحهم وطبخهم ومن ثم قام بأكل لحومهم المطبوخة هو ومن معه فى الجيش .

يقول ابن الكردبوس - أحد الثلاثة الذين عزيت إليهم قصة إحراق السفن - : (ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تدانيا تخير لذريق رجلا شجاعا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيأتهم ، فمضى حتى دخل فى محلة المسلمين ، فأحس طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها ، فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس فنودى فيهم للاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم ، فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح . فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا) (١) .

وبدَّهَى أن هذه القصة لم تقع ، وإنما هى حيلة من طارق بن

(١) تاريخ الأندلس من الاكتفاء : ص ٤٧ ، ٤٨ بتحقيق أحمد مختار العبادى - نشر مدريد ، وانظر مؤلف مجهول (وصف الأندلس وتاريخه) بتحقيق حسين مؤنس ص ١٢٨ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بـ مدريد عدد ١٩٧٤ / ١٩٧٥ (المجلد ١٨) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية : ص ٣٥ ، ونص ابن القوطية موجود فى الصفحات السابقة عند الحديث عن فتح طارق للأندلس فى المصادر الأندلسية .

زياد فى تحطيم الروح المعنوية للخصم ، إذ أنه أراد أن ينقل هذه الصورة عن طريق الجواسيس الذين كان يعلم بوجودهم ، وبأنهم سينقلون ما يرونه إلى القوط وإمبراطورهم وقائدهم لذريق^(١) .

ونحن نرى فى هذه القصة جرأة طارق بن زياد فى اللجوء إلى (خدعة) تقوم على أساس غير شرعى ، فالشريعة الإسلامية لا تقبل - بداهة - ذبح الأسرى ، ولا حتى طبخ الموتى إذا كانوا قد ماتوا ، ولا أكلهم فى حال مثل حال طارق وجيشه ، لكنها الحرب التى تقوم على الخدعة ، والتى يباح فيها مثل هذا اللون من الخداع وغيره . لكن لا يباح فيها - بالطبع - ارتكاب مثل هذه الأعمال على الحقيقة . وهنا نتساءل :

ألا يمكن أن تكون قصة إحراق طارق للسفن حيلة مشابهة لهذه الحيلة ؟

إن ثمة عناصر مشتركة بين الحيلتين ، فكلاهما غير جائزة - على الحقيقة - شرعاً وكلاهما كان من الممكن - لو صحت حقيقة - أن تلقى احتجاجاً من جمهور المسلمين أو من بعضهم على الأقل ، وكلاهما يهدف إلى تثبيت المسلمين وترويع القوط والإيحاء إليهم بأنهم أمام جيش غير عادى ، يؤثر الموت على الحياة ، ويركب فى سبيل النصر أصعب المراكب .

إن هذا ما نراه ينسجم مع أسلوب طارق الحربى ، ولهذا فنحن نميل إلى أن يكون طارق قد أمر بإبعاد السفن عن الشواطئ فى اتجاه

(١) انظر الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ وما بعدها .

الساحل المغربى ، وعندما ابتعد الجيش - بدوره - عن الشواطئ متجها إلى شذونة لضرورات الفتح أمر طارق بإشعال النار فى بعض الأخشاب أو الأشجار ، ثم أوهم المسلمين والقوط على السواء بأن الأسطول قد أحرق ، وأنه لا سبيل أمام المسلمين إلا القتال أو الموت ، وأنه يجب على القوط أن يواجهوا جيشا قد باع كل شىء ، وليس أمامه إلا طريق الاستماتة فى سبيل النصر .

ويؤكد رأينا هذا ذلك الاحتمال الآخر القائم على أن كلمة (حرق) إنما كانت فى الأصل بالخاء (حرق) وأن تصحيحاً وقع فيها عند النطق ، كما يؤكد رأينا كذلك تلك البديهية العقلية التى تفيدنا أن أى هدف يمكن تحقيقه دون خسائر أولى من تحقيقه بخسائر ، فضلا عن الخسائر الفادحة ، وبالتالي فمادام فى طرق طارق تحقيق هدفه دون خسائر فما الذى يدعو للقيام بمثل هذا العمل الذى قد يؤدى إلى خسائر فادحة فى الأرواح والأموال ؟

ويرى الدكتور محمد عيسى أن بعض قادة طارق ، وهم الذين قاموا بإيهام جواسيس لذريق بأكل المسلمين للخوم الأدميين ، هم الذين يمكن أن يقوموا بمثل هذا الإيهام ، فيطلقوا إحراق المراكب ، وهى مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحديثوا بها لإيقاع الرعب فى قلوب عدوهم^(١) . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عاد جواسيس لذريق ليقولوا له : أتتكم أمة تأكل لحوم الموتى ، قد أحرقوا مراكبهم ووطنوا أنفسهم على الموت أو الفتح .

فكان الدكتور عيسى يرى أنها حيلة اشترك فيها قادة جيش

(١) الفتح الإسلامى للأندلس : ص ١١٧ .

طارق، كى يحققوا هدفين فى آن واحد : أولهما خاص بالقوط ،
وثانيهما خاص بعجنود الجيش الإسلامى .

وأيا كان الأمر ، فالقصة - فى رأينا ومن خلال هذه القرائن
والاحتمالات - أدخل فى باب الحيل والمكائد الحربية منها فى باب
الحقيقة التاريخية .

وثمة جانب آخر من جوانب الفتح ، يتصل اتصالا وثيقا بقصة
إحراق طارق للسفن ، غير الجوانب التى تحدثنا عنها ، وهذا الجانب
يتصل بتلك القصة التى اختلف المؤرخون حولها وهى قضية ملكية
السفن التى عبر عليها الجيش الفاتح .

فالدكتور حسين مؤنس - كمثال - ينفى قصة إحراق السفن - كما
ذكرنا - على أساس أن هذه السفن كانت ملكا لجوليان ، وأنه
- بالتالى - لا يجوز للمسلمين أن يحرقوا سفن غيرهم (١) . ويكاد
الأسلوب التقريرى للدكتور مؤنس يوحى بأن عبور المسلمين على
سفن جوليان - وليس على سفن إسلامية - قضية مسلمة وبديهية .

وقد يزكى رأى أستاذنا الدكتور مؤنس ما يذكره الرقيق القيروانى
- من مؤرخى القرن الخامس - أن جوليان (جعل يحمل البربر فى
مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ولا يشعر بهم أهل
الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من
منافعهم ومعائشهم ومتاجرهم فجعل ينقلهم فوجا فوجا إلى ساحل

(١) فجر الأندلس : ص ٦٩ .

الأندلس وقد تقدم « أليان » إلى أصحاب المراكب أن لا يعلموا بهم (١).

فكان الأمر - كما يوضحه نص الرقيق القيروانى - أمر خطة عسكرية أو (حيلة) من حيل طارق ، وليست عمرا أو حاجة من المسلمين لسفن جوليان أو لتجار البحار وقراصتها ، وهو الأمر الذى جعل الدكتور أحمد مختار العبادى ينبرى للدفاع عنه ، لتأكيد أن المسلمين كانت لهم سفنهم وهو الشئ البديهي الذى لا يقبل النقاش ؛ لأن المسلمين كانوا قد أصبحوا من المتنافسين على السيطرة على البحار ، وقد مر عليهم نحو ستين سنة على انتصارهم الرائع فى موقعة ذات الصواري (٣٥ هـ) . ولا يمكن - عقلا - أن يكونوا حتى تاريخ فتح الأندلس (٩٢ هـ) لا يملكون ما يكفى لعبور جيش مثل جيش طارق ، كما أننا نجدهم قد تمكنوا من العبور بعد سنة واحدة بجيش جديد قوامه ثمانية عشر ألف جندي بقيادة موسى بن نصير .

وتحس لا نرى القضية مشكلة على النحو الذى عاجلها به بعض المؤرخين ، كما أننا نرى أنه لا تناقض بين الروایتين ، فقد يمكن أن تكون الحيلة الحربية قد أوجبت عبور الجيش على النحو الذى أورده الرقيق القيروانى ، مع رصد ومراقبة من السفن الإسلامية المرابطة على الشاطئ المغربى والحارسة تشق طريقها - بوضوح - نحو الشاطئ . قامت هذه السفن الراصدة بحمل المؤن وبحمل عدد آخر من الجنود ، وبمجرد نزول الجيش الإسلامى - أو معظمه - على

(١) تاريخ إفريقية والمغرب : ص ٧٤ ، بتحقيق المنجى الكعبى .

الشواطئ الأسبانية بدأت السفن الإسلامية المتربصة والحارسة تشق طريقها - بوضوح - نحو الشاطئ الأندلسي - بعد أن نجحت الحيلة ، وعبر جيش طارق بأقل معارك ممكنة ، إذ لم تحدث إلا موقعة جبل طارق التي خاضها المسلمون في مواجهة الحامية التي تحمل الثغور والشواطئ الأسبانية قبالة المغرب .

بل إن وجود حامية أسبانية على الشواطئ الأسبانية - وهو أمر نراه ضروريا وثابتا - يجعل من خداع طارق وتجنبه الإفصاح عن غايته في الفتح أمرا تقتضيه الظروف العسكرية ، فلو كانت الشواطئ بلا حماية لما أبه طارق بالأمر .

لقد كان جبل طارق يمثل على امتداد التاريخ موقعا استراتيجيا وهمزة وصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، وكان التحكم في مضيق المجرز ضروريا ضد أى عدوان على أسبانيا من الناحية الجنوبية .

ولقد أدرك الفينيقيون منذ القدم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس فأقاموا على هذا الجبل أبراجا للمراقبة^(١) . ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب المغربى المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجرز الذى يفصل بينهما ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته خمسة عشر كيلو مترا ، وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين

(١) تاريخ المغرب والأندلس : ص ٦١ نشر اسكندرية ط ١ .

الشاطئين المغربى والأسبانى (١) .

ويضاف إلى هذا أن الغارات التى شنّها كل من يوليان وطريف على سواحل أسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كى يأخذوا حذرهم من أى هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل أن يغفل القوط بعد ذلك هذه القاعدة العسكرية مهما بلغ ضعفهم بدون حراسة أو مراقبة (٢) .

وكل هذا يجعل من الطبيعى أن يأخذ طارق للأمر أهبة ، وأن يلجأ إلى أسلوبه فى الحيل الحربية ، وبالتالى ، ومع امتلاك المسلمين لأسطول كبير (٣) ، يموء على أعدائه بالعبور على سفن غيره دون أن يعنى ذلك مغامرة بأرواح المسلمين على سفن أجنبية ، فقد كان الأسطول - كما ذكرت - يراقب الحركة كلها - كما أتوقع - عن كثب ، وعلى أهبة الاستعداد لأى طارئ جديد .

وهكذا - من خلال هذا التحليل لقضية (السفن) التى عبر عليها الجيش الإسلامى - يتجلى لنا أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت لجوليان أو للتجار - كما ذكر أستاذنا الدكتور مؤنس وغيره وهو ما نميل إليه من خلال تحليلنا السابق - لكن ذلك كان لحيلة عسكرية وليس لعدم ملكية المسلمين لسفن كافية ، وبالتالى فلا نجد مجالاً لاعتراض الدكتور العبادى الذى ذهب يثبت فيه أن المسلمين

(٢) المكان السابق .

(١) المكان السابق .

(٣) لا يعقل أن يعبر جيش قوامه سبعة آلاف - فى الطلعة الأولى - على أربع سفن هى التى ورد ملكية جوليان لها . انظر : مؤلف مجهول : وصف الأندلس وتاريخه ، مجلد ١٨ عدد ١٩٧٤ ص ١٢٨ ، وانظر العبادى ٥٩ .

كانوا يملكون السفن الكافية .

فالعبر على سفن جوليان أو التجار لم يكن لعدم الملكية بل لحيلة عسكرية ، وإحراق طارق للسفن التي تم العبور عليها غير وارد ، لأنها ملك لغيره ، كما أن إحراقه الأسطول (المراقب) ليس له ما يبرره ، فهو أسطول يحمى الشواطئ ويحمى الجيش الإسلامى من خلفه فلربما تأتى قوى رومانية أو قوطية من الخلف ، ولم تكن مهمة الأسطول فقط - كما ينظر بعضهم إلى القضية - مجرد انتظار المسلمين حتى ينسحبوا - إذا انهزموا - ليركبوه عائدین .

بل هناك ملحظ آخر ، فإن وجود سفن للقراصنة ولجوليان قادرة على حمل الجيش الإسلامى أو بعضه - يوجب وجود أسطول إسلامى على الشواطئ ، فلربما حاولت هذه السفن - وهى نصرانية مهما أظهرت من ولاء - أن تغدر بالمسلمين وتضربهم من الخلف ، فيقع الجيش بين فكي الكماشة ، وهو ما لا يبرره عقل ، ولا توجهه ظروف ، ولا نعتقد أن طارقا كان يورط فيه جيش المسلمين دون سبب معقول !!

ونحن نرى - من كل ذلك - أن إحراق السفن أمر لم يكن جائزاً من الناحية الاستراتيجية ، وليس له ما يبرره ، بل هناك ما يمنعه ، سواء كانت السفن لجوليان أو للتجار للقراصنة أو للمسلمين .

وثمة تساؤلات أخرى - غير جوانب النقد السابقة - تتصل كلها بالنقد التاريخى لهذه القصة - من ناحية مضمونها - بعد أن وصلنا إلى ترجيح رفضها من ناحية سندها التاريخى والمصادر التى اتكأت عليها .

فبالإضافة إلى ما ذكرناه من دلالات خطوات الفتح وأسلوب طارق وموسى فى الحيلة والحذر والحرص على أرواح المسلمين ، واتخاذ طارق كل وسائل تأمين الانسحاب ، ومهارته فى استعمال الحيل التى نرجح أن (إشاعة إحراق السفن) واحدة منها ، وصعوبة - إن لم يكن استحالة - حرق السفن على أساس أنها - فى بعضها على الأقل - ملك لغير المسلمين ، وأنه لا لزوم لحرقها سواء كانت للمسلمين أو لغيرهم ، فالحيل لا تعوز فى الاستعاضة عن هذا الإحراق .

بالإضافة إلى كل هذا ، فثمة تساؤلات أخرى نراها ضرورية فى باب نقد مضمون هذه القصة .

فهذه القصة ليس فيها ما يدلنا على الوقت الذى وقع فيه الحريق . . . هل وقع بعد عبور طارق مع طالعته الأولى ، وهذا يبدو مستبعدا من أول وهلة - بناء على ما صرح من أن طارقا احتاج إلى مدد ، وأمدّه موسى - فعلا - بخمسة آلاف ، وليس صحيحا ما تذكره بعض الروايات - بصفة إجمالية - بأن طارقا عبر بجيش مكون من اثنى عشر ألف جندي وسبعمئة (عشرة آلاف من البربر وألفين من العرب وسبعمئة من السودان) (١) .

ولعل هؤلاء المؤرخين أنفسهم يقصدون أن هذا العدد عبر على

(١) وصف الأندلس وتاريخه : لمجهول : ص ١٢٨ وانظر الطبرى ٨ / ٨٢ (تاريخ سنة ٩٢) طبع دار الفكر بيروت ويرى ابن خلدون أن العرب كانوا ثلاثمئة فقط : العبر ١٧٧/٤ .

مرتين ، وليس فى مرة واحدة ، وإنما الأمر مجرد اختصار منهم ،
وبالتالى فلاحتمال الأقوى : أن يكون طارق قد فعل ذلك - لو فعله -
بعد عبور الجيش كله . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى بن
نصير بعده الذى بلغ ثمانية عشر ألف جندى ، والذى عبر بعد سنة
واحدة ليساعد طارقاً على الفتح ويلتقى بطارق وجيشه على نهر
التاجة . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى هذا قد استحدث
أسطولاً خلال هذه السنة ، أو أنه يكون أصلاً فى غير حاجة إلى
أسطول طارق ، وكلاهما مما نستبعده ، فالمسلمون الذين قالت بعض
الروايات إنهم استأجروا - أو اقترضوا - بعض السفن من جوليان أو
التجار لم يكونوا ليضحوا بأسطول يملكونه !!

ولقد ثبت أن المسلمين كانوا جادين فى البحث عن سفن ، وأن
موسى كان يبحث طارقاً على تملك ما يستطيع تملكه من السفن -
وليس إهدار ما معه من السفن !!

وكما يقول ابن القوطية فقد (ذكروا أن موسى بن نصير وجه
طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك ، فافتتح مدائن البربر وقلاعها ،
ثم كتب إلى موسى : إننى قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه
موسى : أن أتمها سبعة ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد
لشحنها)^(١) . فقيم يكون إذن - مع هذا البحث عن السفن - إهدارها
فى غير ما مصلحة ملحة أو ضرورة !!

(١) تاريخ افتتاح الأندلس : ص ١٢٠ .

ومن الغريب أننا ونحن نستعرض تطور الأحداث في فتح
الأندلس وما تلاه واتصل به من أحداث ، لا نجد أى صدى - فضلاً
عن أية إشارة صريحة - لحادث حريق السفن هذا ، وبالرغم من أن
هناك بعض الأحداث التي كانت توجب وروده بطريقة أو أخرى .

فحسب ما يرويه لنا بعض المؤرخين من أن هناك خلافاً وقع بين
طارق وموسى بن نصير ، وأن موسى قد حقد على طارق ، وساءه
توغله في البلاد دون إذن منه وكتب إليه - كما يقول ابن
خلدون - يتوعدده ويأمره ألا يتجاوز مكانه (١) . ألم يكن حادث
إحراق السفن - لو وقع - سلاحاً في يد موسى يستغله للانتقام من
جهود طارق وتسجيل مخالفة عليه على هذا المستوى من الأهمية ؟

ولقد كان إحراق السفن - لو وقع - ادعى لتأكيد رأى موسى في
أن طارقاً قد غامر بأرواح المسلمين .

وبما أننا لا نؤكد هذا الرأي ، ونرى أن الخطة كانت باتفاق
مسبق ، وأن طارقاً التزم الحكمة واستدعى موسى والتقى معه وسارا
معا بعد نهر التاجة ، وأن موسى فتح مدناً لم يفتحها طارق ، فكملاً
بعضهما ، وأن طارقاً إنما كان ضابطاً ومولى لموسى بن نصير ، وكل
أمجاده تنسب - أيضاً - إلى موسى (٢) . بما أننا لا نؤيد هذا الرأي
فنحن لا نعول على قضية خلاف طارق مع موسى لأننا لم نجد لها
سنداً تاريخياً ولا منطقياً .

(١) العبر : ١١٧/٤ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) انظر العبادى : مرجع سابق : ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

لكننا إذا كنا قد تجاوزنا هذه المسألة ، فنحن لا نتجاوز المسألة الثانية التى تتصل بالخلاف الثابت والمعقد بين الخليفة سليمان بن عبد الملك والقائد موسى بن نصير عندما رفض الأخير التباطؤ بهداياه حتى تؤول إلى موسى حين يكون أخوه الوليد قد لقي ربه ، والقصة مشهورة تشبه أن تكون متواترة (١) .

فلماذا لم يواجه سليمان خصمه موسى بقصة إحراق السفن ؟ تلك القصة التى لم يقم موسى بتوجيه أى لوم أو عقاب لضابطه طارق عليها، فكأنه رضى عنها أو كأنها كانت من تخطيطه فى الفتح .

على أننا فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وخلفائها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم ، لم نجد أى صدى لهذه القصة فى هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن يقع هذا الصمت المريب إزاء قصة قدر لها أن تنال هذه الشهرة ؟

الحقيقة أنه ليس ثمة إلا تفسير واحد - فى رأينا الذى انتهينا إليه والذى نؤمن به - وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا ، حتى يكون لها صدى . وهل يمكن أن تكون عيون التاريخ عمياء - خلال هذه الأحقاب المتطاولة - فلا ترى أى بصيص ، ولا تلمس أية بصمة ، ولا تسجل أى أثر يضع أيدينا - بيقين - على دليل واحد من أدلة الإثبات ، أو نقطة ضوء واحدة موثقة ؟!!

(١) انظر : أخبار مجموعة : ص ٣٥ ، ٣٦ ، والبيان المغرب ٣/ ٢٠ ، ٢١ وانظر العبادى : مرجع سابق ٧٩ .

كلا ، إن عيون التاريخ أقوى من ذلك بكثير ، وكل ما هنالك أن التاريخ الصحيح لا يرصد الأساطير ، ولا يأبه بالشائعات والحيل التي لا تقوى على الوقوف - كوقائع - على قدميها .

وإن التاريخ لقادر على رفضها مهما كان رصيدها من الشيوع في عالم الحكايات الأدبية أو الأساطير الشعبية . وهذا هو الجدير بتلك الأسطورة الغربية ، الغربية على تاريخ المسلمين ، وعلى شريعتهم وروح حضارتهم ، وسيرة صحابتهم وتابعيهم ، والمصادر الصحيحة لتاريخهم والمناقضة لمنطق الوقائع والأشياء .

وهذه هي كلمتنا الأخيرة ، ورأينا الذي انتهينا إليه في هذه القضية ، قضية إحراق طارق بن زياد للسفن .

مراجع البحث

- ١ - أخبار الزمان : للمسعودي - نشر مكتبة الأندلس - بيروت .
- ٢ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها : لمجهول - تحقيق إبراهيم الإيباري - دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠١ هـ .
- ٣ - الإسلام في أسبانيا : للطفى عبد البديع - ط ٢ - مصر .
- ٤ - الإسلام والحضارة العربية : لمحمد كرد علي - طبعة مصر .
- ٥ - الإمامة والسياسة : لابن قتيبة الدينوري .
- ٦ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : لابن عذارى المراكشي .
- ٧ - تاريخ الإسلام السياسي : لحسن إبراهيم - ط ٩ - مصر .
- ٨ - تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية - تحقيق إبراهيم الإيباري - نشر دار الكتب الإسلامية - بيروت - القاهرة .
- ٩ - تاريخ إفريقيا والمغرب : للرفيق القيرواني - تحقيق المنجي الكعبي - نشر رفيق السقطي - تونس - ١٩٦٨ م .
- ١٠ - تاريخ الأندلس : لابن الكردبوس - مقدمة العبادي - طبع معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ١٩٧١ م .
- ١١ - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة : للدكتور عبد الرحمن الحجى : طبع دار القلم بدمشق والكويت - الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .

- ١٢ - تاريخ الرسل والملوك : للطبرى - طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر - نشر دار الفكر - بيروت .
- ١٣ - تاريخ علماء الأندلس : لابن الفرضى .
- ١٤ - تاريخ غزوات العرب : للأمير شكيب أرسلان - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٥ - تاريخ المغرب والأندلس : للدكتور أحمد مختار العبادى - طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٦٦ م .
- ١٦ - جذوة المقتبس : للحميدى - نشر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى - ط ٢ - ١٩٢٣ م .
- ١٧ - الحقيقة التاريخية فى فتح الأندلس : للدكتور محمد عبد الحميد عيسى - ط ١ - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م .
- ١٨ - حول دول الإسلام فى الأندلس : لمحمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجى - ط ٤ - القاهرة - ١٩٦٩ م .
- ١٩ - الدولة العربية فى أسبانيا : للدكتور إبراهيم بيضون - طبعة بيروت .
- ٢٠ - الروض المعطار : للحميرى .
- ٢١ - رواية فتح الأندلس : لجورجى زيدان - منشورات مكتبة الحياة - بيروت .
- ٢٢ - صلة السمط وسمة المرط : لمحمد بن على الشباط المصرى التوزى - تحقيق أحمد مختار العبادى - مدريد - ١٩٧١ م .

- ٢٣ - العبر : لعبد الرحمن بن خلدون - الطبعة الرابعة المصورة - دار الكتب العلمية - ١٩٧٩ م .
- ٢٤ - الفتح الإسلامى للأندلس : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى - ط ١ - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م .
- ٢٥ - فتح المسلمين للأندلس : لمجهول - تحقيق حسين مؤنس - مجلة معهد الدراسات الإسلامية - سنة ١٩٧٤ م .
- ٢٦ - الفتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال إفريقيا والأندلس : للدكتور عبد الواحد زنون طه - طبع ١٩٨٢ م - العراق .
- ٢٧ - فتوح مصر والمغرب والأندلس : لابن عبد الحكم المؤرخ المصرى - نشره المستشرق تشارلز توري ، وأخيراً حققه فى مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .
- ٢٨ - فجر الأندلس : لحسين مؤنس - الطبعة الثانية - سنة ١٤٠٥ هـ - الدار السعودية للنشر .
- ٢٩ - قادة فتح المغرب : للأستاذ محمود شيت خطاب - طبعة دار الفكر .
- ٣٠ - قرطبة فى العصر الإسلامى : الدكتور أحمد شكرى - الطبعة العاشرة .
- ٣١ - قضاة قرطبة : للخشنى .
- ٣٢ - الكامل : لابن الأثير - طبع دار صادر - بيروت .
- ٣٣ - كتاب تذكارى : لقسم اللغة الغربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦ / ١٩٧٧ م .

٣٤ - مبتدأ خلق الدنيا : المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب -
ت ٢٣٨ هـ .

٣٥ - المتين : لأبى مروان بن حيان القرطبي .

٣٦ - محطات أندلسية : لمحمد حسن قجة - ط دار السعودية .

٣٧ - مع المسلمين فى الأندلس : لعلى حبيبة .

٣٨ - المقتبس : لأبى مروان بن حيان القرطبي .

٣٩ - موسوعة التاريخ الإسلامى : للدكتور أحمد شلبى - طبع
القاهرة .

٤٠ - نفع الطيب وغصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقرئ
التمسانى - طبع بيروت .

٤١ - وفيات الأعيان : لابن خلكان - نشر محيى الدين عبد الحميد .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

- قضية إحراق طارق للسفن فى المصادر التاريخية ٥
- فتح طارق للأندلس فى أقدم المصادر الأندلسية ٩
- ظهور رواية إحراق السفن ١٣
- إحراق السفن والأسطورة ١٦
- خطبة طارق ... ما مدى دلالتها على حرق السفن ٢٤
- قضية إحراق طارق للسفن فى نظر المؤرخين المحدثين ٣٤
- النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين المحدثين ٣٤
- الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين ٣٧
- إحراق السفن فى الإطار الشرعى ٤٦
- رأينا فى القضية ٥٠
- أولا : نقد السند ٥٠
- ثانيا : النقد التاريخى لمضمون قصة إحراق السفن ٥٥
- مراجع البحث ٧٣
- الفهرس ٧٧

رقم الإيداع : ٧٧١٥ / ١٩٩٥ م

I.S.B.N:977-255-122-5

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

قضية هذا الكتاب

* لم تحظ قضية من قضايا التاريخ الإسلامى الأندلسى باهتمام المؤرخين مثلما حظيت قضية إحراق « طارق بن زياد » للسفن ، التى عبر عليها جنوده إبان فتحه أسبانيا .

* وفى هذا الكتاب يستعرض المؤلف موقف المصادر التاريخية من تلك القضية ، ويذكر آراء المؤرخين المحدثين ، ويوازن بين المواقف ويمحص الأقوال والآراء مستخدما منهج المحدثين فى نقد السند والمتن ، مع إضافات متميزة قدمها هذا الباحث المتخصص ، الخبير بسير التاريخ وعمل الزمان وطبائع الرجال . .

ويتهى المؤلف قائلا : « على أننا فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وخلفائها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم — لم نجد صدى لهذه القضية فى هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن تنال هذه الشهرة . . !!

الحقيقة أنه ليست ثمة إلا تفسير واحد ، وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا . . .

** و **دار الصحوة** يسعد بها أن تتقدم بهذا الكتاب إلى قرائها ، والله الموفق .

Bibliotheca Alexandrina



0347949

دار الصحوة للنشر والتوزيع - الدار

الإدارة : ١٦ ش عدلى ص.ب ١٣٤٧ رمز بريد

ت ٣٩٣١٤٣٤ فاكس :

الفرع : حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين ت

